المحاضرة الثالثة : أدب السير

1 – مفهوم السيرة:

تحيل لفظة السيرة في اللغة العربية على عدة معان فهي« الطريقة والهيئة » [1] ، وهي :

« السنة ، وكتب السير مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة » [2] ، ويقال : « سيّر سيرة حدّث أحاديث الأوائل »[3]، وفي القرآن الكريم : { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى } [4]، بمعنى سنعيدها إلى حالتها التي كانت عليها ، ويقال : « قرأت سيرة فلان ، تاريخ حياته ، ج سير » [5] .

ولم يعط لمصطلح السيرة تعريفا محددا ، فقد أورد عبد الله إبراهيم بأنها « الترجمة المأثورة لحياة النبي ، واقترنت بالمغازي الدالة على مناقب الغزاة ، أي أفعالهم الفروسية » [6] .

وما يلاحظ على هذا التعريف أنه حصر مصطلح السيرة في المجال الديني بينما تعدى المصطلح حدود هذا المفهوم عند دارسي الأدب ليصبح دالا على ذلك النوع الأدبي الذي « يعرف بحياة علم أو مجموعة من الأعلام » [7] .

وبذلك يصبح لمصطلح السيرة مجال أوسع ، حيث لم يعد يقتصر على ترجمة حياة شخص له مكانة مميزة في المجتمع ، كما لم يعد موضوع السيرة مقتصرا على الحرب ، بل أصبح مقترنا بحياة العلم ومجال اهتمامه .

أما المهتمون بالفولكلور العربي ، فقد حددوا مصطلح السيرة الشعبية ، ومجال تليقها لتصبح دالة عندهم على « مجموعة من الأعمال الروائية الطويلة، ذات سمات فنية متشابهة ، وذات أهداف فنية متماثلة » [8] .

---

[1] – إبراهيم أنيس وآخرون : المعجم الوسيط ، ج1 ، مطابع دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1392هـ – 1972 ، ص 467 .

[2] – الموسوعة العربية العالمية ، المجلد 13 ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، العربية السعودية ط2 ، 1419هـ – 1999م ، ص 381.

[3] – ابن منظور : لسان العرب : مادة سير ، دار لسان العرب ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ص 390.

[4] – سورة طه : الآية رقم 21.

[5] – إبراهيم أنيس : المعجم الوسيط ، ص 467.

[6] – عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 125.

[7] – الموسوعة العربية العالمية ، المجلد 13 ، ص 381.

[8] – فاروق خورشيد : السير الشعبية العربية ، ص 05..

وتُعنى هذه الأعمال بتتبع حياة البطل الذي تحمل عادة السيرة اسمه ، حيث تعرض بطولاته وشجاعته ومواقفه في قالب نثري يتخلله الشعر في الكثير من الأحيان ، ولا تكتفي السيرة الشعبية بعرض حياة البطل الرئيسي ، فهي تتعدى إلى ذكر منازل قومه ومناقبهم ونسبهم مع الإشارة إلى الدور الذي يمكن أن ينهض به بعض الأبطال الثانويين .

2 – نشأة السيرة العربية :

ترجع نشأة السيرة العربية إلى العصر الجاهلي ، حيث كانت هناك مرويات شفوية يتداولها العرب بعضهم عن بعض بالسماع شملت ذكر أقوام بائدة مثل التباعنة [1] ، والجراهيم[2] ، والعماليق [3] ، وأقوام طسم وجديس وجديس [4] ، وعاد [5] وثمود [6] ، كما شملت ذكر الكهان وأسجاعهم وأيام العرب ومفاخرهم التي تحكي عن عن بطولاتهم وكرمهم وإبائهم ، وكثير من الأخبار التي تصور حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والفكرية ... كما عرف العرب قصص الشعوب والأمم المجاورة أو التي احتكوا بها .

وقد أدى تراكم هذه المرويات وانتشارها إلى نسج الكثير من القصص والحكايات دارت حول سير الأبطال وحول الجن وأسمائها ومواطنها والغيلان والسعالي، وأخرى تدور حول أيام العرب ...

---

[1] – التباعنة : ملوك اليمن ، واحدهم تبع ، سموا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعا له على مثل سيرته ، وزادوا الهاء في التبابعة لإرادة النسب ، ويقال أن تُبتَ اشتق لهم هذا الاسم من اسم تبع ولكن فيه عُجمة ، وفي الحديث "لا تسبوا تبعا فإنه أول من كسا الكعبة" ، قيل هو ملك في الزمان الأول اسمه بعد أبو كره ، وقيل : كان ملك اليمن لا يسمى تبعا حتى يملك حضر موت وسبأ وحمير . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (تبع) ، ص 31.

[2] – الجراهيم : نسبة إلى قبيلة جرهم ، وهم حي من اليمن نزلوا مكة وتزوج فيهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهما أصهاره ، ثم ألحدوا في الحرم فأبادهم الله تعالى . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جرشم) ، ص 67.

[3] – العماليق : العملاق : الطويل والجمع عماليق ، والعمالقة من عاد وهم بنو عملاق ، قال الأزهري : عملاق أبو العمالقة وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام على عهد موسى عليه السلام، وقال ابن الأثير : العمالقة الجبابرة الذين كانوا بالشام من بقية قوم عاد . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عنق) ، ص 371.

[4] – طسم وجديس : حي من العرب انقرضوا ، الجوهري : طسم قبيلة من عاد كانوا فانقرضوا. ابن منظور : لسان العرب ، مادة (طعم) ، ص 363.

[5] – عاد : قبيلة ، وهم قوم هود عليه السلام . ابن منظور : مادة (عود) ، ص 322.

[6] – ثمود : قبيلة من العرب الأولى، ويقال أنهم من قبيلة عاد، وهم قوم صالح على نبيها عليه الصلاة والسلام بعثه الله إليهم . ابن منظور : مادة (ثمعد) ، ص 105.

وإذا تتبعنا المرحلة الجاهلية بالدراسة ، وجدنا أكثر من إشارة تدل على اشتغال هذه المرويات الحيز الأكبر من حياتهم ، وليس أدل على ذلك من وجود عدد كبير من محترفي رواية الأخبار مثل : النضر بن الحارث ، وهب بن منبه ، كعب الأحبار ...

وأصبحت بذلك رواية الأخبار ضرورة من ضرورات حياتهم « إذ كان في الجاهلية من ينصب نفسه لتعليم الأخبار وقصص التاريخ ، فيقصده من يقصده ، يستمليها ويكتبها .. » [1] .

وقد شكلت هذه المرويات بمرور الزمن تراثا ثقافيا يحمل عادات العرب وتقاليدهم ومعتقداتهم في الجاهلية ، وتميز وصولها إبان الفترة الإسلامية بإعادة تشكيلها تماشيا مع التغيرات الجديدة، التي أحدثها الإسلام في شبه الجزيرة العربية على جميع المستويات: السياسية والاجتماعية والفكرية والاجتماعية... ونتيجة لهذه التغيرات برزت فئة من الرواة من أمثال: تميم الداري (ت 40هـ/660م) ، وعبد الله بن عباس (ت 68هـ/687م) ... الخ ، فرضت ذوقا عاما على المجتمع وذلك بتبنيها رواية الأخبار الماضية للتأكيد على أهميتها في حياة العرب من جهة، وأن الإسلام جاء ليؤكد على عراقة العرب ومجدهم من جهة أخرى .

اتخذ الرواة في صدر الإسلام المساجد والمجالس العامة أماكن لرواية الأخبار والقصص الماضية، « وقد تواترت الأخبار عن الرسول الكريم (صلعم) ، أنه استمع إلى قصة الجساسة والدجال رواها له تميم الداري (ت40هـ-660م) ، ويُعد تميم هذا أول قاص في الإسلام (...) ولم يكن تميم القاص الوحيد ، بل إن عبد الله ابن عباس (ت 68هـ-87م) شارك في هذا الفن وخاض غماره ، إذ كان يجلس يوما ما يذكر منه إلا الفقه ، ويوما التأويل ، ويوما المغازي ، ويوما الشعر ، وأيام العرب » [2] .

وهكذا ، عندما وجدت تلك المرويات مكانا في المجتمع الجديد راح الرواة الذين ولعوا بها يمزجونها بأحداث عصرهم ، فكان أول ما سجلوا مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله وأفعاله وغزواته ، فظهرت سيرته عليه الصلاة والسلام التي اعتمدت على شيئين: « الأول ما كان دائرا بين العرب عن أخبار الجاهلية كأخبار جرهم ودفن زمزم [3] وأخبار قصي بن كلاب [1] وغلبته على أمر مكة وجمعه أمر قريش ومعونة قضاعة

---

[1] – طلال حرب : أولية النص ، ص 39 .

[2] – المرجع نفسه ، ص 39/38.

[3] – زمزم هي بئر إسماعيل بن إبراهيم التي سقاه الله منها حين ظمئ وهو صغير ، ومما يروى عن دفنها أن قبيلتي جرهم وقطراء اليمنيتين نزلتا بمكة ، فبغى بعضهم على بعض ، واقتلتتا قتالا شديدا ، ثم تصالحتا فصار الملك إلى عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي الذي تذكر الروايات أنه قبل أن ينطلق ومن معه من جرهم إلى اليمن قام بدفن غزالي الكعبة وحجر الركن في زمزم ، وقد حزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا . ومما يروى كذلك أن عبد المطلب بن هاشم ، بينما كان نائما ، أُتي فأمر بحفر زمزم ، وكانت قد دفنتها قبيلة جرهم عندما وليت أمر مكة ، بعد ابن إسماعيل . راجع السيرة النبوية لابن هشام ، ص 111 - 116 .

له ، وقصة سد مأرب [2] ونحو ذلك ، والثاني أحاديث رواها الصحابة والتابعون من بعدهم عن حياة النبي (صلعم) من ولادته ونشأته ودعوته إلى الإسلام، وجهاده مع المشركين وغزواته وعلى الجملة أخباره إلى حين وفاته ، وقد أضافوا أخبار الجاهلية والاسلام ، الأشعار التي رويت في هذه الموضوعات ... » [3] .

وتعتبر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أول سيرة كتبت في التاريخ العربي الإسلامي بعد وفاته ، وكان أول كتابها من جملة الصحابة والتابعين نذكر منهم : عروة بن الزبير بن العوام (ولد سنة 23 هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (ت 105هـ) وشرحبيل بن سعد (ت 123هـ) واشتهروا بكتابة مغازيه عليه الصلاة والسلام ، ثم تبعتهم طبقة أخرى من الصحابة نذكر منها : عاصم بن عمر بن قتادة (ت 120 أو 129هـ) ، وابن شهاب الأزهري (ت 124هـ) ... وكان ذلك في العصر الأموي مع استمرار الاهتمام برواية القصص وسير الأبطال والأخبار الماضية في المجالس والمساجد والقصور ، فمما يحكى عن معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي أنه كان « ينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ عليه غلمان مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيمر بسمعه كل ليلة حمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح » [4] .

ويفسر اهتمام الخلفاء برواية القصص ما له من أهمية عند العرب ، كما يبين الدور الخطير الذي كان يؤديه في حياتهم ، إذ أصبح موجها عاما للحياة الثقافية عندهم .

وازدادت أهميته في العصر العباسي ، إذ ألفت فيه كتب مختلفة وحظيت السيرة النبوية بالانتشار والتدوين، فكان لها مكان متميز، وقد اهتم بالتأليف فيها رجال كان من أشهرهم : موسى بن عقبة (ت 141هـ) ومعمر بن راشد (ت 150 هـ او ت 153 هـ) ومحمد بن إسحاق (ت152هـ أ ت 153هـ) ، ومؤلفين آخرين كان منهم ابن سعد (ولد 168هـ) والواقدي (ولد 130 هـ وتوفي 209هـ) وابن هشام (ت 218هـ 230هـ)، الذي اكتملت على يديه الصورة النهائية للسيرة النبوية التي كانت الأصل الموجه لصياغة أنواع السيرة الموجودة في الأدب العربي .

---

[1] – قصي بن كلاب : وهو من أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ يذكر اسمه في سلسلة نسب الرسول عليه الصلاة والسلام ، راجع السيرة النبوية لابن هشام ، ج1+2 ، ص 123 / 125.

[2] – قصة سد مأرب: تروي المراجع العربية عن أنهيار سد مأرب أنه يرتبط بشخص اسمه عمرو بن عامر، وكان هذا الأخير قد رأى جرذا يحفر في السد ، فعلم أنه لا بقاء له ، لذلك اعتزم الرحيل فغادر من دون أهله ، وتبعته الأزد ، وكانت وجهتهم الشمال وبعد رحيلهم انزل الله السير العرم فهدم السد . انظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ج1 ج2 ، ص 13.

[3] – أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج2 ، ص 319.

[4] – المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج3 ، ص 222 ، نقله طلال حرب : أولية النص ، ص 39.

ومما يجدر ذكره في هذا السياق ، جَمْعُ بعض المؤلفين بين السيرة النبوية والتاريخ ، « فوصلوا سيرة الرسول بما بعدها من الحوادث والأخبار، في الأزمان التي تعاقبت، والسنين التي توالت ، فجاءت سيرة الرسول في كتبهم أمرا غير مقصود لذاته : بل حلقة من حلقات التاريخ العام الذي بدأه بعضهم من بدء الوجود ، كابن جرير الطبري ، وبدأه فريق آخر بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كالإمام حافظ أبي شجاع شيرويه صاحب كتاب رياض الأنس ، والمتوفى سنة 509 هـ »[1] .

وهذا المزج يفسر أمرين : أولهما أهمية فن الخبر في حياة المسلمين بصفة عامة وعلماء الدين بصفة خاصة ، وثانيهما : مكانة السيرة النبوية في التاريخ العربي الإسلامي .

3 – السيرة النبوية الأصل الموجه للأنواع السيرية :

لم تكن للعرب مادة قصصية عندما جاء الإسلام غير القصص الذي كان شائعا بينهم، والذي تشكل من أخبار الأمم الغابرة وسير الملوك والأبطال وأيام العرب .. وكان الغالب على هذه الأخبار الطابع الأسطوري المحمل بعادات العرب وتقاليدهم ومعتقداتهم وخرافاتهم في الجاهلية، ولما جاء الإسلام أضاف لهم مادة قصصية قيمة من حياة الرسول صلعم جمعت فيما بعد لتشكل كتب السيرة النبوية .

وقد اتجه القصاصون إلى هذه المادة يتتبعونها أثرا أثرا ، وذلك لما وجدوا فيها من زخم وغنى فني يتلاءم مع حياتهم الجديدة ، وأكثر ما دعاهم إلى تتبع سيرته عليه الصلاة والسلام الاهتمام بأخلاقه وشمائله الحميدة التي أصبحت مثالا يحتذى به عند المسلمين في حياته وبعد وفاته ، كما كان جهاده وغزواته ومعاركه مثار اهتمامهم .

وترجع أسباب تتبع المسلمين بصورة عامة والقصاصين بصورة خاصة لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى غياب التدوين، وهذا سبب ديني يرجع إلى أن القرن الأول مضى جميعه دون أن تدون الأحاديث النبوية تدوينا له صبغة رسمية ، ولعلهم تحرجوا أن يفعلوا ذلك فيجعلوا إلى جوار كتاب الله كتابا آخر (...) فقد روي عن الزهري أنه قال : أخبرني عروة ابن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن واستشار فيه أصحاب الرسول ، فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهرا يستخير الله في ذلك شاكيا فيه ، ثم أصبح يوما عزم الله له فقال : إني كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وأني والله لا ألبس كتاب الله شيء »[2] .

---

[1] – ابن هشام : السيرة النبوية ، المجلد 1 و 2 ، تحقيق وشرح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ط 2 ، 1375 هـ / 1955 م ، ص 10.

[2] – فاروق خورشيد : في الرواية العربية ، (عصر التجميع) ، ص 179 .

ولعل في تحرج الصحابة من كتابة الحديث النبوي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ما أتاح الفرصة للمشتغلين بالأخبار من رواية سيرته والاهتمام بحياته دون التقيد بالأحداث، وهذا سبب ثقافي يفسر « حاجة العرب إلى زاد من القصص ، فكان لا بد من البحث عن مصدر جديد للقصص والأسمار » [1] ، يغذي أحلامهم ويلبي رغباتهم ، ويكون في الوقت نفسه مخلصهم من براثن الجاهلية التي ألفوها .

ولقد وجد العرب في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم قيما ومثلا عليا كانوا جسدوها في أبطالهم الذين حمّلوهم سمة المدافعين عن رسالة معينة ، « وقد أتاحت لهم من هذا الجانب شخصية الرسول كل السمات التي يبحثون عنها في أبطالهم (...) فقد كانت معاركه كلها معارك انتصار لمبدأ ودفاع عن إيمان ، وحربا ضد شر وكفر (...) كانت معاركه إذن تصور صورة واقعية لأحلام أسطورية كثيرة راودت ذهن العربي وملأت خياله من قبل ... » [2] .

وتبقى حاجة الناس إلى معرفة حياة الرسول –صلعم– في غياب تدوين أفعاله وأقواله الدافع الرئيسي الذي جعلهم يلجئون إلى تدوين سيرته إضافة إلى الانقلاب الكبير الذي أحدثه الإسلام في حياتهم ، مما جعلهم أكثر حرصا على تدوين حياة مبلغ هذه الأمة .

لجملة هذه الأسباب شرع المهتمون بسيرته عليه الصلاة والسلام في تتبع حياته منذ ولادته حتى وفاته مستفيضين في الحديث عن أخلاقه وشمائله وغزواته، ولم يتركوا جانبا من جوانب حياته إلا وخاضوا فيه من جميع مناحيه ، « فمنهم من يفيض الحديث في أخلاقه ومنهم من يطيل القول في شمائله ، ومنهم من يتحدث عن أولاده ، ومنهم من يتخذ من أخلاقه مثلا كاملا للإنسان الكامل ، ومنهم من يجعل من السيرة النبوية محورا تدور حوله أحداث التاريخ الإسلامي وأعمال رجاله وصانعيه الأولين » [3] .

وكانت سيرة الرسول – صلعم – بعد وفاته روايات متفرقة لم يختص أحد بروايتها في زمنه ، والمرجح « أن الصحابة كانوا المصدر الأساسي لرواية وقائع حياته ، وعنهم أخذ الرواة الأول الذين بدأوا بالظهور في النصف الثاني من القرن الأول » [4] ، ويكون بذلك أول كُتَّاب السيرة من الصحابة والتابعين كما ذكرنا من قبل .

وكان تأثير كتب السيرة النبوية على الحديث قويا ، فلقد دخله الوضع والتحريف ، ولعل السبب راجع إلى أن مصادر هذه الموضوعات كانت من كتب كبار الأخباريين العرب كوهب بن منبه وعبيد بن شرية، « فقد

---

[1] – المرجع نفسه ، ص 189.

[2] – المرجع نفسه ، ص 184 / 185.

[3] – محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، (دت) ، ص 34.

[4] – عبد الله إبراهيم: السردية العربية ، ص 127.

انتشرت هذه الكتب وكأنها تحوي علما حقيقيا لا جمعا أسطوريا ، لما سبق الرسول من أحداث ورواية قصصية لأحداث حياة الرسول .. » [1].

ونتيجة لهذا السبب ساد الاختلاف في كتابة السيرة النبوية بين المحدِّثين أمثال : عروة بن الزبير وأبان بن عثمان بن عفان والأخباريين أمثال : ابن إسحاق والواقدي وابن سعد ، وكلاهما يمثل اتجاها في كتابة السيرة النبوية، له منهجه وطريقته، « فأما المحدِّثون فتمسكوا بالسند ورجاله ، وأولوا ذلك الأهمية الأولى ، وهم لا يقبلون حديثا إلا إذا استوثقوه من رجال سنده واحدا واحدا (...) وأما المؤرخون أو أهل التاريخ فكان لهم منهج آخر علمي سليم ، ولكنه لا يختلف عن منهج المحِّدثين فإن كبارهم من أمثال الواقدي وابن إسحاق وابن سعد يسلكون طريق السند الجماعي، أي أن الواحد منهم يبدأ بذكر جميع رواته وأسانيدهم، ثم يجمع ذلك كله ، ويستخرج منه رواية واحدة على النحو الذي نجده في كتبهم ، وقد أنكر أهل الحديث هذا المنهج واتهموا رجال التاريخ من أمثال ابن إسحاق والواقدي وابن سعد في عدالتهم » [2] .

وسايرت عملية تدوين الحديث ، تدوين مغازي الرسول الكريم ، وتناولت تقريبا كل السير هذا الموضوع، حتى أنها أخذت اسم المغازي في بداية ظهورها، إذ كانت سمة بارزة لها، « ويطلق مصطلح المغازي في الثقافة العربية الإسلامية على الأعمال الحربية التي قام بها الرسول (ص) وصحابته بصفة خاصة ، ويطلق أحيانا على جميع ما يتعلق بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم » [3] .

كانت السيرة النبوية تروى مشافهة في بداية ظهورها [4] ، حيث يعتمد راويها على ذاكرته ، إذ له حرية التصرف في تقديم الأحداث وتأخيرها ، وفي الزيادة والنقصان فيها ، واستمرت تروى على هذا الحال إلى أن عرفت طريقها إلى التدوين على يد محمد ابن إسحاق الذي عدّ أول من دونها في كتاب، وقد تأثرت المرويات التي ألف منها كتابه بالعصر الذي عاش فيه ، لذلك أضفى عليها مفاهيم عصر التدوين لا عصر الوقائع المدونة » [5] .

والذي تجدر الإشارة إلى ذكره أن ابن إسحاق جمع المادة التي ألف منها كتابه ممن سبقه ، وقام بتبويبها على طريقة كتاب عصر التدوين أمثال وهب بن منبه وعبيد بن شرية الجرهمي ؛ وقد كانت لكتبهم ميزة البدء بنسب البطل وصحة اتصاله بقبيلته ، وتخللت أخبارهم الأشعار وهي سنة في التأليف القصصي العربي ، كما

---

[1] – فاروق خورشيد : في الرواية العربية (عصر التجميع) ، ص 190.

[2] – حسين مؤنس : دراسات في السيرة النبوية ، ديوان المطبوعات الجامعية (دط ، دت) ، ص 15/14.

[3] – عبد الحميد بورايو : المغازي لون من ألوان الثقافة العربية الإسلامية ، مجلة الفنون الشعبية ، العدد 51 ، أبريل – يونيو ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، 1996 ، ص 36.

[4] – انظر عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 126.

[5] – المرجع نفسه ، ص 129.

أضفوا على الرسول بعض الأحداث الخارقة [1] ، وظلت سيرة النبي التي دونها ابن إسحاق على هذه الطريقة إلى أن ظهرت شخصية اكتملت على يدها الصورة النهائية للسيرة النبوية ، تلك هي شخصية عبد الملك بن هشام (ت 213 -628م) ، التي صاغ روايتها من سيرة ابن إسحاق التي انتهت إليه فاستبعد منها ما لم يرض اهتمامات الفقهاء « وأضاف إليها ما استحسنوه في مذاهبهم ، وأهمل التحقيق والمقارنة والنقد والمساق المنطقي للحوادث ، وأسقط من الأشعار ما لم يرض عنه وأضاف ما استحسنه » [2] .

ومن هنا أصبحت سيرة النبي لابن هشام المصدر الذي يستقي منه المؤرخون معلوماتهم والنموذج الأكمل لفن اكتمال السيرة النبوية برغم من أسبقية محمد بن إسحاق في هذا الميدان وفضله الكبير في روايتها ، « فلولا روايته ومشيخته لابن هشام ما انتهت إلينا السيرة النبوية بهذا الشكل الذي يعد أقدم مصدر معتمد في حياة الرسول » [3] .

كما عُدَّت السيرة النبوية الأصل الموجه لإعادة بعث وإحياء سير الغابرين وأخبار الأولين ، وإليها يرجع فضل اهتمام العرب بكتابة سير الأبطال ، ففي العهود التي تلت كتابتها « اختار الشعب شخصيات تاريخية من العصر الجاهلي خاصة مثل : الملك سيف بن ذي يزن (50 ق.هـ - 574م) ، والمهلهل بن ربيعة (نحو 100ق هـ - 525م) ، وعنترة بن شداد (22 ق هـ - نحو 600م) ، أو من العصر المملوكي كالظاهر بيبرس (676 هـ-1277م) ، وكتب لها سيرا كاملة ومطولة صور فيها ما عصف بهم من الأحداث وكيف تصدوا لها وانتصروا عليها » [4] .

ومن هذه الشخصيات التي تمثل عصور البطولة العربية تكون هيكل سيرنا الشعبية العربية محاكية في طريقة بنائها السيرة النبوية التي مهدت لها الطريق للظهور « الأمر الذي يؤكد أن بنية السيرة النبوية كانت الموجه الأول لصياغة البنى السردية للسيرة الشعبية فيما بعد » [5] .

ولا يخفى علينا الأثر الذي تركته كتب السيرة النبوية على كتب السيرة الشعبية فبعدما تنوقلت سيرته صلى الله عليه وسلم ولاكتها الألسن أصبح لها مكان متميز في مجتمع بدأت الأدران تنخل جسمه ، وفي الوقت الذي كانت لها هذه المكانة التي تعززت بتدوينها ، استغل القصاصون الوضع الجديد ورووا للخاصة وللعامة قصصا ، وكانت أكثرها انتشارا وذيوعا تلك المتعلقة بسير الأبطال ، وكانت حاجة العامة قد اشتدت إلى رواية هذا النوع

---

[1] - انظر فاروق خورشيد : الرواية العربية ، 188-192.

[2] - حسين مؤنس : دراسات في السيرة النبوية ، ص 14.

[3] - محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 32.

[4] - طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 7/6.

[5] - عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 130.

من القصص البطولي الشعبي « عندما توالت المصائب والمحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة ، وعنف المتغلبين من المغول فتقدم إليهم القصاص والمحدِّثون ، فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان ، ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأنماها الاختلاف ، حتى قيض الله لهذه السير في دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة، فكان من ذلك قصص عنترة وبن هلال ، وسيف بن ذي يزن ، والأميرة ذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وعلى الزئبق المصري ، وفيروز شاه » [1] .

واقتضت هذه الظروف مجتمعة تدوين السير الشعبية على طريقة تشبه تلك التي دونت بها كتب السيرة النبوية ، فكان اهتمام الرواة فيها بسبب البطل باديا وحرص ذكر اسمه في سلسلة النسب السامي، وذكر قبيلته ومفاخرها ، كما وضع الرواة شرطا قيدوا به أنفسهم قبل الشروع في رواية سير أولئك الشجعان تمثل في الصلاة على النبي المختار ، وهذا يوضح إلى جانب تخلل أخبارها بالأشعار الأثر القوي الذي تركته كتب السيرة النبوية على هذه المدونات .

ومما سبق يتضح أن النمط الذي دونت عليه كتب السيرة الشعبية لا يختلف كثيرا عن نمط تدوين كتب السيرة النبوية بشكل خاص والقصص العربي بشكل عام .

4 – أنواع السيرة العربية :

أ – التراجم :

عدّ الدارسون التراجم نوعا من الأنواع السيرية ، لأنها تتناول طبقات الأشخاص من حقول معينة ومختلفة ، فتصف معالم حياتهم وأعمالهم ومواقفهم ، لذا فهي تنطوي على حقائق ومعارف كثيرة تتصل بحياة هؤلاء الأعلام الذين يشكلون رصيدا لا بأس به من المعرفة الإنسانية « وتمثل التراجم جزءا كبيرا من الموروث الفكري والأدبي يصعب حصره امتد إلى جميع حقوق النشاط الثقافي وتنهض التراجم على قواعد محددة تهدف إلى التعريف الموجز بالمترجم له اسما وكنية ولقبا ، تعقبها وقفة وجيزة على أخباره ونتاجه الأدبي تتناسب وأهمية الشخص » [2] .

أولى العرب فن التراجم اهتماما بالغا حتى ليمكن عدّهم في مقدمة الأمم في هذا الميدان وقد أخذت التراجم في الظهور منذ القرن الثاني للهجرة، وكان الباعث على ظهورها دينيا محضا، إذ كان غرضهم خدمة الحديث النبوية الشريف بتقصي الحقائق عن رواته وحفظته ، فأخذوا يتتبعون آثارهم للحكم عليهم « فترجموا

[1] – أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1419-1999 ، ص 289.

[2] – عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 130.

لهم تراجم وجيزة لم يكن القصد منها إلا بيان قيمة المحّدث ومكانته من الإسناد ، وجرّهم ذلك إلى وضع كتب في نقد الرجال المحدِّثين ووزنهم بموازين دقيقة تجعلهم جديرين بحمل أمانة الرواية عن الرسول صلعم » [1] .

لقد أدى تدوين الحديث إذن في هذا العصر وبيان قيمة المحدثين ومكانتهم في تراجم وجيزة إلى خدمة فن التراجم ، إذ نبّهت الكتب الأولى في هذا الفن كتاريخ البخاري والطبقات لابن سعد الأذهان إلى وضع تراجم أخرى تهتم بلون واحد من العلم ، « فلم يلبث العرب أن ألفوا في التراجم وفي الطبقات ، فكان إلى جانب تراجم الصحابة والتابعين وطبقات الفقهاء والمحدثين والحفاظ والشعراء والمفسرين تراجم الأدباء والشعراء ، وتراجم للنحاة واللغويين وتراجم للأطباء والحكماء ولسائر العلماء » [2] .

ثم أخذت التراجم تتنوع وتتعدد مواضيعها ، إذ اتسع مجالها – كما ذكرنا – فشملت الشعر والفقه والحديث والطب ... فاختلفت بذلك في حجمها وتراوحت ما بين الإيجاز والإسهاب، « ولا شك أن طائفة المعارف والمعلومات والحقائق التي تتصل بالمترجم له تعين كثيرا على الإطالة في الترجمة له وعلى فسح مجال القول فيه ، فهنا يجد كاتب الترجمة فيضا واسعا من المادة التي تطول معها التراجم » [3] .

والجدير بالذكر أن كتب التراجم كانت ترجمة لاهتمامات أصحابها ، لذلك تنوعت واختلفت مواضيعها ، فكان منها المخصص لموضوع واحد مثل كتاب " طبقات فحول الشعراء " وكتاب " الشعر والشعراء " لابن قتيبة ، فموضوع كتابهما الشعر، أو الذي يهتم بأكثر من موضوع مثل المعاجم كمعجم الأعلام لخير الدين الزركلي ، ومعجم الشعراء للمرزباني ، وكتاب "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" للثعالبي ... الخ ، فهي معاجم وكتب تحوي أخبارا عن محدثين وفقهاء وأطباء ومؤرخين... وقد استمرت كتب التراجم على هذه الشاكلة تحوي جمعا لطائفة من الأخبار .

ومما لوحظ على تراجم هؤلاء الرجال أنها أخذت طريقة المحدثين ، لأنهم كانوا الأسبق في هذا الميدان ، فاصطبغت المؤلفات الأدبية على وجه الخصوص بصبغة أعمال المحدثين خاصة فيما تعلق بطريقة الإسناد ، « فهم لا يذكرون الخبر مجردا ، وإنما سيندونه إلى رواته قائلين : حدثنا فلان عن فلان كما يصنع أصحاب الحديث فهم متأثرون بهم في الإسناد إلى حد كبير » [4] . ويمكن أن نعد كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مثالا عن تأثره بطريقة الإسناد فمما يرويه عن أخبار دُعبل بن علي ما يلي : قال : « أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار

---

[1] – محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 18.

[2] – عمر الدقاق : مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم ، منشورات دار حلب ،سوريا ط 5 ، 1977 ، ص 229.

[3] – المرجع السابق ، ص 72 .

[4] –محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 20.

ومحمد بن أحمد الحكمي قالا : حدثنا يعقوب بن اسرائيل قال : حدثني أنس عبد الله النبهاني قال : حدثني علي بن المنذر قال : حدثني عبد الله بن سعيد الأشعري قال : حدثني دعبل بن علي قال : لما هربت من الخليفة بت ليلة بنسابور وحدي وعزمت على أن أعمل قصيدة في عبد الله بن الظاهر في تلك الليلة فإني لفي ذلك إذ سمعت والباب مردود عليّ : السلام عليكم ورحمة الله ، يرحمك الله ، فاقشعر بدني من ذلك ، ونالني أمر عظيم ، فقال لي : لا تفزع عافاك الله فإني رجل اخواتك من الجن، ثم من ساكني اليمن ، طرأ إلينا طارئ من أهل العراق ، فأنشدتنا قصيدتك :

مَدَارِسُ آياتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاوَةٍ وَمَنْزِلِ وَحَيٍّ مُقْفِرِ العَرَصَاتِ

فأحببت أن أسمعها منك ، قال : فأنشدته أياها ، فبكى حتى خرّ ، ثم قال : رحمك الله ، ألا أحدثك حديثا يزيد في نيتك ، ويعينك على التمسك بمذهبك ؟ قلت : بلى ، قال مكثت حينا أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام ، فصرت إلى المدينة ، فسمعته يقول : حدثني أبي عن جده أن رسول صلعم : قال أن عليا وشيعته هم الفائزون، ثم ودعني لينصرف فقلت له : يرحمك الله إن رأيت أن تخبرني باسمك فافعل ، قال : أنا ضبيان بن عامر » [1] .

وكما يبدو من هذا المثال ربما فإن أبا الفرج الأصفهاني متأثر بطريقة الإسناد التي وجدت عند المحدثين، فقبل أن يسرد قصة دعبل بن علي مع الجن أرجع الحادثة إلى رواتها الذين كانوا مصدر القصة التي انتهت إليه .

ولا يخفى على متتبع هذا الفن العمل الجليل والجهد الكبير الذي قام به هؤلاء المترجمون بقصد نقل ما أثر عن المترجم لهم ، فقد حرصوا على ذكر الخصال ، وقاموا بالتمحيص والمقارنات ... « غير أن الحقائق في هذه الكتب كثيرا ما تختفي وراء ظاهرة الإسراف في إطراء المترجم لهم والمبالغة في الثناء عليهم ، والغلو في تقديرهم ... » [2]، فهذا ابن قتيبة صاحب "الشعر والشعراء"، يطري حديثه عن حاتم الطائي، فيقول عنه :« ..وكان جوادا ، شاعرا جيد الشعر ، وكان حيث ما نزل عُرف منزله، وكان ظفرا، إذا قاتل غلب وإذا غنم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح سبق، وإذا أسر أطلق ، قال أبو عبيدة : أجود العرب ثلاثة : كعب بن مامة وحاتم طيْ وهرم بن سنان صاحب زهير » [3] .

---

[1] – أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، تحقيق وإشراف نخبة من الأساتذة ، مج 20 ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ط6 ، 1404هـ / 1983 ، ص 93 – 94 .

[2] – عمر الدقاق : مصادر التراث العربي ، ص 230.

[3] – ابن قتيبة : الشعر والقراء ، ج1 ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1916 ، 1966 ، ص 241 .

وكما هو جليٌ ، إطراء بن قتيبة على حاتم الطائي في حديثه ، فقد ألحق به من الخلال الحميدة والأوصاف الحسنة ، حتى أن المرء ليعجب منه .

– أنواع كتب التراجم :

1 – التراجم العامة الجامعة :

وهي تراجم لرجال بارزين يجتمعون في صفة الجدارة ويختلفون في توجهاتهم المعرفية وفي عصورهم وأمصارهم .

2 – التراجم حسب العصور :

يتناول هذا النوع الترجمة للرجال حسب العصور التي ينتمون إليها.

3 – التراجم سنة سنة :

وهي التي تقوم على ترتيب الأعلام المترجم لهم على حسب السنين ، كأن يذكر في كل سنة أهم من مات فيها ، ويعتبر هذا النوع من هذه الناحية سجلا تاريخيا لوفيات الرجال حسب السنين .

4 – التراجم في كتب التاريخ العام :

وهو أن يعمد المؤرخ إلى الترجمة لبعض الرجال بعد ذكر الحوادث السياسية العامة في كل سنة .

5 – التراجم في كتب الخطط والآثار :

يهتم هذا النوع بذكر البلدان ومواقعها ومعالمها ، كما يهتم بالترجمة للرجال الذين شيدوا عمرانها .

6 – كتب الطبقات في التراجم :

يهتم هذا النوع من التراجم بالرجال ذوي الاهتمام الواحد ، فيجمعون في طبقات على اعتبار تخصصهم ، ويندرج تحت هذا النوع : طبقات الصحابة والفقهاء والمفسرين والمحدِّثين والشعراء والصوفية والقضاة والفلاسفة والأطباء والحكماء ...

ومن هذا التنوع تأخذ التراجم طريقها إما إلى التاريخ أو إلى الأدب ، ويصطلح على النوع الأول بالتراجم الخارجية ، وعلى النوع الثاني بالتراجم الداخلية ، ويقتصر المترجم في النوع الأول على « وصف المترجم له بذكر الحقائق الخارجية والوقائع التي حدثت للمترجم من غير أن يشوبها المترجم بشيء من أفكاره ومشاعره ، والترجمة من هذا النوع ليست إلا ثبتا للحقائق ، وهي بالمؤرخ أشبه » [1] .

أما في النوع الثاني من التراجم فيذكر المترجم عن المترجم له « ما وصل إليه من حقائق ويحللها ثم يتبعها برأيه في المترجم إما دفاعا عنه أو هجوما عليه ، إما نقدا وذما وإما مدحا وتقريضا، إما استحسانا للمأثور عن أقواله وآرائه أو استهجانا ، وهذا النوع بالأدب أليق » [2] .

وعرفت التراجم العربية بتوالي العصور تطورا كبيرا ، وسارت في طريقتها على نهج المحدثين منذ القرن الثاني الهجري خاصة فيما يتعلق بطريقة الإسناد وجمع الأخبار حول الشخصية المترجم لها ، واستمرت على هذا النحو إلى غاية العصر الحديث حيث أخذت طريق آخر اختلف عن نهجها القديم ، فلم يعد المترجمون يهتمون بجمع المعلومات بقدر ما أصبحوا مهتمين بشكلها ورونقها الأدبي ، « ولقد ظهر هذا التحول في كتابة التراجم في الأدب العربي الحديث في الثلث الثاني من هذا القرن ، فظهرت العبقريات وطائفة أخرى من التراجم (...) وأخذت شخصيات التاريخ الإسلامي من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولاة والعلماء تكتب بأقلام جديدة تستمد حقائق التاريخ من قديم المصادر وعتيق المراجع » [3] .

وبناء على هذا التوجه الجديد في كتابة تراجم الرجال عُدَّت الترجمة فنا أدبيا له مميزاته وخصوصيته التي تفصله عن باقي الأنواع الأدبية، والذي يهمنا أنها تلتقي مع فن السيرة في الخصائص التالية :

1 – الاعتناء بظاهرة النسب وخاصة نسب الشخصية الرئيسية ، ففي الأغاني يهتم أبو الفرج بنسب الشخصيات الرئيسية ، ومن تلك التي أسهب في الحديث عنها شخصية دعبل بن علي الذي يقول عنه « هو دعبل بن علي بن رزين بني سليمان بن تميم بن نهشل (وقيل نهنس) بن خداش بن خالد بن دعبل بن أنس بن خزيمة بن سلامان بن أسلم بن أقصى بن حارثة بن عمرو بن عامر مزيقيا » [4] .

2 – الاهتمام بتصوير حياة الأشخاص من خلال الأخبار المروية ،كما في شخصية دعبل بن علي .

---

[1] – أحمد أمين : فيض الخاطر ، ج2 ، سلسلة الأنيس ، موفم للنشر ، الجزائر ، (د.ط) ، 1989 ، ص 271.

[2] – المرجع نفسه ، ص 272/271.

[3] – محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 14.

[4] – أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، المجلد العشرون ، ص 68.

3 – الاعتناء بحياة الشخصية الرئيسية والإحاطة بمولدها ونشأتها وأهم الأحداث في حياتها، مع عدم إهمال الشخصيات الثانوية، ففي الأغاني دائما يتعرض أبو الفرج الأصفهاني لنسب مسكين الدارمي ومعارضته لشعر الفرزدق وإعراض هذا الأخير عنه ، وإعجاب معاوية بشخصيته واستحسان بشر بن مروان لشعر مسكين الدرامي ، وحادثة خطبته للفتاة التي كرهته لسواد لونه وقلة ماله وغيرها من الأحداث التي وقعت له في حياته [1] .

4 – الاعتماد على التاريخ في استقاء المادة ، وهنا تختلف الترجمة عن السيرة في كون هذه الأخيرة تعمل على تحوير الأحداث التاريخية لخدمة أغراضها ، كما في السيرة الشعبية .

ب – السيرة الذاتية :

تعد السيرة الذاتية لونا من الألوان الأدبية العريقة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية ، إذ يطالعنا كم هائل من هذا النوع ، وإذا كان ما مضى من الأشكال السيرية الأخرى يمثل سيرة الآخرين ، فإن هذا الشكل يمثل السيرة التي يكتبها الكاتب بنفسه عن تجاربه الشخصية فهي « حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية ، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة » [2]، مسجلا أعماله ومبينا تكوينه الفكري ورصيده الثقافي، وهذا ما يجعل من هذا الشكل حكرا على الفلاسفة والعلماء والأدباء والساسة والعسكريين ...

يعتبر هذا الشكل السيري دخيلا على الثقافة العربية ، إذ يعد فنا مستحدثا قلّد فيه العرب « غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرءوا آثارها ، وخاصة اليونان » [3]، فقد قرأ العرب ترجمة "جالينوس" في العصر العباسي وترجمة كسرى وتراجم ذاتية لشخصيات أخرى من أمم مختلفة ، تأثروا بها ، فترجموا لأنفسهم ، فجاء إنتاجهم غزيرا .

وهناك من يرجئ تأخر ظهور فن الترجمة الذاتية عند العرب حتى العصر العباسي إلى « أن العرب كانوا أحرص الناس علىحيواتهم الخاصة حين انصرفوا عن التراجم الذاتية لأنفسهم ، ولعل أصحاب الخطر والشأن منهم من أهل القدرة على الكتابة ، قد عدّلوا عن الترجمة لأنفسهم ما دام غيرهم من الكتاب والمؤرخين قد تولى ذلك

---

[1] – المرجع السابق ، من ص 179 إلى 268 .

[2] – محمد الباردي : السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، المجلد 16 ، الجزء 1 ، العدد الثالث ، مجلة النقد الأدبي تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1997 ، ص 271.

[3] – شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط 2 (د.ت) ، ص 05.

عنهم ، ولعل من خلق العربي وسمات نفسه أن لا يتحدث عن نفسه يقوله : أنا أو عن عمله بقوله : عملت »
[1] .

وربما كان سبب تأخر الترجمة الذاتية راجع إلى ولوع العرب وافتتانهم بفن الخبر ، وربما أدى بهم هذا الافتتان إلى الانصراف عنها ، وبالتالي تأخر ظهورها حتى العصر العباسي الذي ظهرت فيه أولى الترجمات الذاتية على يد حنين بن إسحاق (ت 260 هـ -873م) ، عندما ترجم لنفسه متأثرا بما ترجمه عن "جالينوس" ، وعقبت ترجمة حنين ابن إسحاق ترجمات شخصية وجدت على شكل رسائل ومن أشهرها رسائل: محمد بن زكريا الرازي (ت 313هـ/925م) ، وابن الهيثم (ولد 354هـ/965م) ، وابن سينا (ولد 370هـ / 980م) ... وبدأ بعد ذلك التزايد على هذا الشكل اعتبارا من القرن الخامس الهجري ، فظهرت ترجمات ذاتية في ثنايا الكتب مثل الترجمة الذاتية لابن حزم في كتابه طوق الحمامة في الألفة والآلاف (ت 454هـ-1062م) .. ثم كانت أول ترجمة ذاتية كاملة لعلي بن زيد البيهقي (ت565هـ/1169م) في كتابه "مشارب التجارب" وهو مفقود [2] ، ثم توالت ترجمات شخصية لعماد الدين الأصبهاني وابن الجوزي (ت 597هـ-1200م)، وكان ذلك في القرن السادس الهجري .

وكثرت الترجمات العلمية والأدبية في القرن السابع الهجري وظهر أعلام ترجموا لأنفسهم مثل : محمد بن محمد الجزري (ت 833هـ-1492م) ، ومحمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ-1496م) ، وللسيوطي (ت 911هـ-1505م) ، .. وكانت التراجم تأتي على شكل كتيبات ورسائل مستقلة .

واتسع مجال الترجمة بعد هذا القرن ، وتنوعت واتسعت ميادينها فكان للمتصوفة كما كان للأدباء ورجال السياسة والمؤرخين والفلاسفة ترجماتهم الشخصية .

وفي العصر الحديث استفاد العرب من فن الترجمة عند الغرب ، فقد كان متطورا عندهم ، وكتبوا سيرهم الشخصية على ضوء ما كتبه أدباء الغرب ، فجاءت كتاباتهم إما على طريقة الاعترافات ، محاكية أعمال جان جاك روسو J. J. Rousseau وغوته Guth .. وإما على طريقة التستر تحت فن القصة محاكاة لأعمال جولدسميت "Goldsmith" وديكنز « Dickens» [3] .

ومن أهم من ترجموا لأنفسهم في العصر الحديث عند العرب : علي مبارك في كتابه "الخطط التوفيقية" ، سنة 1989 ، ومحمد كرد علي في "خطط الشام" وطه حسين في "الأيام"، وأحمد أمين في "حياتي" ، وعباس

---

[1] – محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير ، ص 24.

[2] – انظر شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، ص 43.

[3] – انظر المرجع السابق ، ص . ن .

محمود العقاد في كتابه "أنا" ، وقد جاءت كتابات هؤلاء الأعلام على طريقة الاعترافات ، وصفوا فيها حياتهم دون أي تحرج ، ويمثل كتاب إبراهيم الكتاب للمازني طريقة التستر تحت فن القصة .

ج – السير الموضوعية :

هي السير التي يكون فيها المترجم والمترجم له معروفين ، وتختلف عن الترجمة العادية في كونها تسهب في الحديث عن الشخصية المتحدث عنها ، فتفصل في حياتها وأعمالها وآثارها وتهتم بمكانتها تاريخيا وفكريا ، لأن الهدف في هذه التراجم هو تقديم الشخصية بوصفها نموذجا للاحتذاء شأن شخصية عمر بن الخطاب ، التي تناولها "ابن الجوزي" في كتابه الموسوم بمناقب أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" ، وشخصية ابن طولون التي أسهب البلوي في الحديث عنها في كتابه الذي عنوانه "سيرة أحمد بن طولون" .. وكثيرا من الشخصيات ذات المكانة المرموقة .

وكان الداعي إلى التأليف في هذا الشكل السيري هو السيرة الشريفة للشخصيات المترجم لها ، فقد أدى اهتمام الناس بها إلى استفاضة المترجمين في الحديث عن أوصافها وشمائلها وخلالها ، فابن الجوزي يعزو سبب تناوله لشخصية عمر بن الخطاب إلى اعتبارين : أولهما أن في "أخبار الأخيار دواء للقلوب ، وجلاء للألباب" [1] ، وثانيهما : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « جمع من العلم والعمل ما أدهش العلماء والعاملين ، وقام من الحد في السياسية والعدل ما أعجز الولاة السلاطين ، وأضاف إلى ذلك من الزهد والصبر ما يلح (يكل ويتعب) دونه أهل العزم من الملوك والزاهدين فأخباره تقوم إلى الأمر تارة باحتذاء أثره وتارة بتنكيس رؤوس العجزة عنه وتحت أهل الجد في طلب الآخر ، على التشمير في قطع مضمار السباق ... » [2] .

ويستمد المترجم الأوصاف التي يضفيها على المترجم له من المرويات الإخبارية التي تراكمت حول تلك الشخصية ، فيذكر ابن الجوزي في باب حديثه عن مولد عمر بن الخطاب ما تجمع عنده من أخبار حول مولده وكذلك في باقي الأبواب ، فهو يستند إلى جملة ما تواتر إليه من الأخبار التي تجمعت حول شخصية عمر رضي الله عنه ، ويؤدي تراكم المرويات حول شخصية معينة في كثير من الأحيان إلى « إضفاء سمات شبه خارقة على الشخصيات موضوع السير » [3] ، فعن نبوءة التوراة بشأن ظهور عمر بن الخطاب يحدثنا ابن الجوزي قائلا :

---

[1] – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، دراسة تحقيق وتعليق : السيد الجميلي ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 2003 ، ص 13.

[2] – المرجع نفسه ، ص 14/13.

[3] – عبد الله ابراهيم : السردية العربية ، ص 132.

« عن عبد الله قال : ركب عمر رضوان الله عليه فرسا ، فركضه فانكشف ثوبه عن فخذه فرأى أهل نجران على فخذه شامة سوداء، فقالوا: هذا الذي نجده في كتابنا يخرجنا من أرضنا » [1] .

إن إشارة التوراة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضفي على شخصيته سمات العظمة والرفعة ، فهي تجعل منه شخصا غير عادي ، لأن النبوءة في الكتب السماوية عادة ما تختص بالأنبياء والرسل .

وتقرب هذه السمات الشبه الخارقة التي يضفيها المترجم عن المترجم له – من خلال ما تجمع عنده من أخبار – هذا الشكل السيري من شكل السيرة الشعبية التي يغلب على أحداثها الطابع الأسطوري ، كما يلتقيان من جانب الاستفاضة في الحديث عن الشخصية موضوع السيرة « ... ولذلك فالسير الموضوعية مرحلة من التعبير الموضوعي عن الآخرين ، تقع بين التراجم والسير الشعبية » [2] .

د – السيرة الشعبية :

اعتبرت السيرة الشعبية « في أحسن أحوالها سيرة أنساب قبيلة أو عشيرة أو عائلة حاكمة مثلما هو الحال بالنسبة للإلياذة الهوميرية ، والتي لا تعدو أن تكون سير أنساب قرابية تؤرخ لأسرة أتريوس وحروبها في آسيا الصغرى التي بؤرتها حصار طروادة » [3] .

وإذا كان رأي شوقي عبد الحكيم يتمحور في كون هذه السير ، إنما هي سير أسباب بالدرجة الأولى ، فإن هذه الأعمال تتجاوز كونها تعالج أنساقا قرابية، فهي تمثل من جانب آخر « حكايات حب وعشق وروايات غرام تختلج بالعواطف والغرائز على السواء » [4] .

وبهذا التحديد ، أصبحت السيرة الشعبية نوعا من أنواع القص الذي يترجم لحياة مجموعة من الأبطال الشعبيين أشهرهم : المهلهل بن ربيعة ، والظاهر بيبرس ، وعنترة بن شداد، والأميرة ذات الهمة ... كما أصبحت السيرة الشعبية ذات وظيفة غايتها تحقيق واقع مشرق ينتفي فيه الظلم وينتصر فيه الحق على الباطل ، وهذا ما يجعلها تساهم في بناء واقع بطولي ومثالي يعبران عمّا ينبغي أن يكون ، وهي بهذا المفهوم تقترب من الأدب بمعناه

---

[1] – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ص 19.

[2] – عبد الله إبراهيم : السردية العربية ، ص 132.

[3] – شوقي عبد الحكيم : السير والملاحم الشعبية العربية ، ص 06.

[4] – فاروق خورشيد : عالم الأدب الشعبي العجيب ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1411 هـ – 1991 ، ص 27 .

الواسع الذي هو « الكشف عن حقيقة الحياة الخفي منها قبل الظاهر ، ذلك أن هذا الشيء الخفي هو الذي يمثل جوهر الحياة وحقيقتها » [1] .

لم يلق تدوين السيرة الشعبية الاهتمام الكافي ، وهذا راجع إلى عدة عوامل منها ما أشرنا إليه من قبل فيما يتعلق بنشأتها ، ومنها ما يتعلق بطبيعتها الشفوية زيادة على طول هذه النصوص وصعوبة كتابتها ، والمتتبع لهذا الشكل السيري عليه الوقوف على مهمتين أساسيتين ، إحداهما تتعلق ببداية تشكل السير الشعبية والأخرى تتعلق بعملية إنشادها .

– بداية التشكل :

أجمع الدارسون على صعوبة تحديد زمن بعينه لبداية ظهور هذه النصوص ، وهذا راجع للإهمال الذي لقيته ولموقع منتجيها في الثقافة العربية الإسلامية ، إذ لحقتهم نظرات الاحتقار حتى بعد تدوين نصوصها ، ولعل انتمائها إلى صلب المرويات ما جعلها تنأى عن بقية النصوص في الأدب العربي ، حيث « لم تشر المصادر الأدبية والتاريخية إلى السير الشعبية إلا إشارات مقتضبة في سياق ذمها، وبذلك فالغموض يحيط بالأشكال الأولى لهذه المرويات فضلا عن الأسباب الكامنة وراء ظهورها » [2] .

إن جذور السير الشعبية العربية أقدم بكثير من صورتها النهائية التي وصلت إلينا لأن تدوينها على يد بعض المنشدين لا يقدم إلا صورة حية عن عصورهم ، وما يؤكد قدم هذا الشكل استدعاؤهم لأشهر أبطال العرب مثل : المهلهل بن ربيعة وعنترة بن شداد ، وسيف ابن ذي يزن ، وهذا « ما جعل بعض الباحثين يعللون ظهورها إلى أنه نوع من استحضار الماضي المجيد لمواجهة عصر انحسر فيه الدور العربي » [3] ، فهي وهذه الحالة مثلت حلا ملائما لجأ إليه المنشدون هروبا من واقعهم ومواجهة في الوقت نفسه للقوى المتحكمة فيهم آنذاك ، ولعل في انفتاح هذه النصوص على الواقع والخيال معا وهي في طور الشفوية ما جعل المنشدين يقدمون عليها ، إذ رأوها نصوصا مرنة ، يمكن تطويعها لخدمة أغراضهم ، وهذا ما منحها نفسا قصصيا طويلا هيأها لأن تكون مادة متطورة مع الزمن ، لا تهتم بالتسلسل التاريخي للأحداث والشخصيات .

لقد كان للأسباب النفسية والحضارية دورا كبيرا في ظهورها ، وتمثلت الأسباب النفسية في "تعلق الجماعة الإسلامية بذكرياتها" [4] ، هذه الذكريات التي جعلت نصوصها أكثر انتشارا وأكبر قدرة على البقاء ، والمتتبع لهذه السير الإسلامية يلاحظ أنها كانت حتى وقت قريب في بعض البلاد العربية مثل : مصر ولبنان من « أفضل ما

---

[1] – فاروق خورشيد ومحمود ذهني : فن كتابة السيرة الشعبية ، ص 34/33.

[2] – المرجع السابق ، ص 137.

[3] – المرجع نفسه ، ص 137.

[4] – أندري ميكال : الأدب العربي ، ترجمة رفيق بن وناس وآخرون ، (دط – دت) ، تونس ، ص 78.

يمكن تقديمه للناس لتعريفهم بتاريخهم الإسلامي خاصة وأن تلك السير تنبع من ضرورة دينية وعظية » [1] ... ، وقد لا تتضح وظيفتها الوعظية في بعض السير مثل سيرة المهلهل بن ربيعة التي تقوم على مبدأ الأخذ بالثأر، لكن المتتبع لأحداث هذه السيرة يقف على مبادئ إسلامية بحتة كالإيمان بمبدأ التوحيد والتسليم الكلي لمبدأ القضاء والقدر ، والسيرة في مجملها تنادي بتحقيق العدل والمساواة في أسمى معانيهما ، وهذا ما جعلها موجهة لخدمة التاريخ الإسلامي في عصوره المختلفة ، وتبقى غاية سيرنا الشعبية العربية من هذا الجانب تنبيه أبناء الأمة العربية على الرجوع إلى هذا التاريخ بهدف الاقتداء بأولئك العظام الذين عرفهم التاريخ العربي .

أما الأسباب الحضارية فكان الدافع إليها الحروب الصليبية « التي أهتز فيها الوجدان العربي هزة قوية دفعته إلى أن يعتصم بعصر البطولة ، فانتخب من الفرسان الجاهليين سيرة المهلهل بن ربيعة وسيرة عنترة بن شداد وسيرة سيف بن ذي يزن ، وطالت الحروب الصليبية وكانت الوقائع فيها مستعرة الأوضاع ، وغلب غير العرب على الحكم ، فازداد اعتصام الوجدان العربي بالسمة المشتركة وهي العروبة ... حتى إذا انتهت الحروب الصليبية وقام بتصفيتها الظاهر بيبرس بعد صلاح الدين الأيوبي، جعلوه محور نوع آخر من قصص الفروسية ذات الطابع الملحمي » [2] .

ونستدل من ذلك على أن الحروب الصليبية كانت تشكل بحق صدمة نفسية مؤلمة للعرب ، هدفت إلى القضاء على العروبة والإسلام ، ولقد وجد القاص الشعبي ما يدحض هذه الصدمة في الوقت الذي انحسرت فيه البطولة العربية ، وكان عمله جريئا عندما احتفى بعالم سير الأبطال ، هذا العالم الذي أراده أن يكون بديلا عن الواقع الذي دمرت الحروب الصليبية تقريبا كل بناه ، كما أراده أن يكون في الآن نفسه تعويضا عن المجد العربي الضائع .

ولا شك أن عمل القاص الشعبي ، وجد صداه عند الجمهور المتعطش للنصر والذي كان يتوق للظفر بأعدائه الصليبين الذين طال أمد بقائهم على الأرض العربية .

– إنشاد السير الشعبية :

سنعتمد في هذا الموضوع على ما ذكرته المراجع عن الإنشاد وعن ظروفه وآلاته وموضوعاته ، وكل ما يتعلق به ؛ إذ أن ظاهرة الإنشاد حاليا موجودة في أماكن محصورة ، إن نقل لم يعد لها وجود البتة. وربما كانت

[1] – وفاء علي سليمان : الأم في الملاحم والسير ، دراسة مقارنة ، الناشر وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط 1 1982 ، ص 230.

[2] – عبد الحميد يونس : دفاع عن الفولكلور ، ص 139.

على مستوى جلسات خاصة ، أضف إلى ذلك أن الظروف الحالية التي تمر بها المجتمعات العربية ، والمجتمع الجزائري خاصة ، تجعل من الصعب العودة إلى هذا الفن ليحتل مكانه في الأسواق لاعتبارات حضارية وغيرها .

وتعتبر ظاهرة الإنشاد من التقاليد التي اقترنت بالسيرة الشعبية ، وقد عرفت بهذه السمة في المشرق والمغرب [1] العربيين واستمرت إلى عهد قريب ؛ ونعني بالإنشاد : قراءة المنشد لجزء من أجزاء السيرة في مكان ما مصحوبا بآلات موسيقية كالربابة ، وتتسم هذه الآلات بميزة مهمة « وهي قربها العجيب من الصوت البشري ، فتبرز النغم وتقسمه وتضبطه وتساير الوزن والإنشاد معا » [2] .

ويقوم المنشد مرفوقا بهذه الآلات بإنشاد السيرة على فترات رابطا بين حلقاتها تبعا لحجم نص السيرة ، وهو في غالب الأحيان... يطيل للتأثير في الجمهور ويكون مكان إنشادها عادة في المقاهي ، والأسواق ، والأماكن العمومية ، وفي الحقول وأوقاتها، وفي ليالي السمر والمواسم .

يتصف منشدو السير الشعبية بقدرة فائقة على التحكم في عملية الرواية وهم في غالب الأحيان لا يلزمون أنفسهم بتتبع المرويات المدونة وإنما يتصرفون في الأحداث تبعا للحالات الانفعالية للمستمعين ، ويغدو دورهم هنا إيجابيا لتحولهم من ميدان النقل إلى ميدان الخلق ، ومن الإنشاد بمفهومه البسيط إلى أدائه المحترف « ولهذا تتنوع صور الآداء وفق تباين أحوال المجتمعات الشعبية العربية ، ومن ثم نجد صورا من الآداء ترتكز على الإلقاء المسرحي، بينما تضيف أخرى العزف على الربابة ، وتتوسع ثالثة في العزف والغناء مكونة فرقة متعددة الآلات والأدوار » [3] .

ومما لا شك فيه أن هذا التنوع يشير إلى وجود رواة محترفين لعملية الأداء ، لهم أساليبهم وأدواتهم الخاصة بهم، وتجدر الإشارة إلى استعانة هؤلاء المحترفين بوسائل وأدوات مثل الخشبية التي تُحمل في « مواقف الفروسية والحرب » [4] .

كما قد يستعين المنشد بأشخاص مساعدين يشير إليهم أثناء حمله للسيوف « تخييلا للناس أنهم عدوه، وما أن يصوبه إلى أحدهم حتى يترنح أو يميل » [5]، كما يستعين المنشد ببعض الألبسة التي تكون منتمية لعصر

---

[1] – أكد كل من الباحثين الجزائريين : عبد الحميد بورايو في "القصص الشعبي في منطقة بسكرة" ، ص 101 – 102 ، وروزلين ليلى قريش في"القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي" ، ص 100 –101 ، على أن الجزائر عرفت ظاهرة إنشاد السير الشعبية .

[2] – عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، مطبعة القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1956 ، ص 160.

[3] – الموسوعة العربية العالمية ، مج 13 ، ص 385 .

[4] – عبد الحميد يونس ، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، ص 163.

[5] – المرجع السابق ، ص 161 .

الرواية ، وعادة ما يكون الزي الشرقي هو الغالب تأكيدا على الصفة العربية وهو « يرغب دائما عن الزي الإفرنجي الحديث لشعوره بمجافاته لجو السيرة العام » [1] .

وهدف المنشدين من صنع هذه الأجواء تقريب الصورة للمشاهدين والتأثير فيهم قاصدين التغطية الكلية لهذه النصوص التي قد تستمر روايتها لأيام وأسابيع وربما لأشهر والأمر يرجع بطبيعة الحال إلى ضخامة بعض هذه الأعمال مثل سيرة الأميرة ذات الهمة التي تقع في سبع مجلدات .

إن الأداء المحترف الذي وصف به بعض منشدي السير جعلهم يشتهرون تحت أسماء من قبيل العناترة والهلالية والظاهرية نسبة إلى سيرة عنترة بن شداد وسيرة بني هلال وسيرة الظاهر يبرس في المشرق العربي و في المغرب العربي المداحة والقوالة ، وهذا يحيل مباشرة على أهمية هذا التقليد الذي تفردت به طائفة منهم وعملت على غرسه في نفوس الجماعة الموجه إليها .

وتغدو مهنة الإنشاد في هذا الصدد مشابهة لعروض مسرحية خاصة فيما يتعلق بالمنشدين فهم لا يتوانون في الإضافة والانتقاص وحتى تغيير مجرى الأحداث بما يجعلها تتماشى ورغبة الجمهور ، لأن « الأصل في الإنشاد والغناء هو الاستهواء الذي يفقد المشاهد ذاتيته وكذا الأمر بالنسبة للشاعر صاحب الربابة والحكواتي ... » [2] .

إن تصرف المنشدين في هذه النصوص هو الذي جعلها تتنوع وتتعدد وتدخل في أحقاب زمنية متباينة ومتداخلة تنأى عن أصولها إلى حقب تبعد عن تلك التي عاش فيها أبطالها كما ذكرتهم المصادر الأدبية ، فالمهلهل بطل حرب البسوس التي اشتهرت في العصر الجاهلي هو غيره بطل السيرة الشعبية التي تحمل اسمه، ففي هذه السيرة تجاوز المهلهل حدود المكان ، وقفز على حدود الزمن ، وتخطى عصره إلى العصور الموالية ، مدافعا ببطولته وشجاعته وجلده عن العروبة وتعاليم الإسلام .

إن تميز سيرنا الشعبية العربية بالمرونة هو الذي أدى إلى بنائها وتشكلها على الطريقة التي وصلت بها إلينا ، فالصلاة على النبي في بداية السير وذكر أصل العرب ونسب البطل وتدخل الراوي أثناء سرد الأحداث ، مميزات تدل على تدخل الرواة والمنشدين في عملية سردها ، كما تدل على عملية تحكمهم في روايتها حسبما تقتضيه ظروف المستمعين ، ولا أدل على مرونة سيرنا الشعبية العربية من تشبعها بقيم وتعاليم الديانة الإسلامية ، خاصة في تلك التي يعود أبطالها إلى العصر الجاهلي .

---

[1] – المرجع نفسه ، ص . ن .

[2] – فاروق خورشيد : الموروث الشعبي، دار الشروق ، القاهرة ، مصر، ط 1 ، 1412هـ-1992م ، ص 154.

ولم تفقد السير الشعبية العربية هذه المرونة رغم التطور الحاصل ، فحتى إلى وقت قريب منا لا يزال المنشدون يحتلون مكانا متميزا في المجتمع العربي ، ولا يزال تأثيرهم فاعلا في الجمهور، وتذكر لنا ألفة الأدلبي مشهدا متميزا عن مجالس المنشدين في سوريا فتقول: « لقد رأيت ذات مرة بأم عيني في مدينة اللاذقية، منذ سنوات قلائل، وفي ساحة رئيسية مقهى قد ازدحم فيه الناس ليسمعوا من الحكواتي قصة الزير سالم ، التي لا تمت إلى مشاكلنا الراهنة بأية صلة ، بينما قبع الراديو صامتا في زاوية المقهى على الرغم من الأغاني والتمثيليات والمسلسلات التي يحفل بها ،لقد ثبت لي أن الراديو لم يستطع أن يقضي على الحكواتي تماما كما لم تستطع السينما أن تقضي على المسرح ، لأن بين الحكواتي وجمهوره ، وبين الأفراد والجمهور أنفسهم مشاركة حية تعجز الآلة عن تحقيقها » [1] .

ومما تجدر الإشارة إلى ذكره أن اسم المنشد أخذ أسماء مختلفة في البلاد العربية ، ومن بين هذه الأسماء نجد : الحكواتي ، القوال ، الراوي ، الشاعر ، وقد يأخذ المنشد اسم بطل السيرة ،كما سبق أن ذكرنا .

5 – خصائص السيرة الشعبية :

تتعدد السير الشعبية في الأدب الشعبي العربي ، وتشكل ثروة معرفية لا بأس بها ، ومن أبرز هذه السير التي ما زال البعض منها راسخا في الذاكرة الشعبية العربية: سيرة بني هلال، سيرة عنترة بن شداد ، سيرة الظاهر بيبرس، سيرة المهلهل بن ربيعة ، سيرة سيف بن ذي يزن ... وسيرة الأميرة ذات الهمة .

تتفق هذه السير في مظهر عام يعكس قيمتها بصفتها عملا فنيا له من الخصائص ما يجعله متميزا عن باقي الأشكال الشعبية الأخرى .. وهي بهذا التميز تحقق جملة من الخصائص نذكر منها :

1 – تتميز السير الشعبية العربية بالطول ، حيث تمتلئ أغلب نصوصها بمئات الصفحات وتتكون من عشرات الأجزاء ، الشيء الذي يجعلها تتشكل من عدة مجلدات [2]، ويرجع هذا الطول إلى طبيعتها الشفوية .

السيرة	عدد المجلدات	عدد الصفحات
1 – ذات الهمة	7	5962
2 – عنترة	8	3624

[1] – ألفة الأدلبي : نظرة في أدبنا الشعبي (ألف ليلة وليلة وسيرة سيف بن ذي يزن) ، منشورات دار اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سورية ، (د.ط) ، 1974 ، ص 74.

[2] – أخذ هذا الجدول من كتاب سعيد يقطين : قال الراوي ، (البنيات الحكائية في السيرة العربية) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 1997 ، ص 25.

3 – الظاهر بيبرس	5	2600
4 – بني هلال	3	1352
5 – سيف بن ذي يزن	4	1511
6 – حمزة البهلوان	4	1198
7 – الزير سالم	1	203
8 – علي الزئبق	2	316
9 – فيروز شاه	4	1248
10 – سيف التيجان	1	312

2 – يوجد في السير الشعبية سرد لقوائم نسب الأبطال وقبائلهم وتاريخ أسلافهم ، ففي سيرة المهلهل بن ربيعة مثلا : يبدأ راوي هذه السيرة بالصلاة على النبي ثم يذكر أصل العرب وما كان من أخبارهم ثم انقسامهم إلى قبائل قيسية وقبائل يمنية، إلى أن يخصص بعد ذلك حديثا عن القبائل القيسية ، لينسب لها بطل السيرة ، ليشرع عندئذ في سرد أحداث سيرته [1] ، ويمكن أن نعتبر هذه العناصر بمثابة بنية الاستهلال في هذا الشكل التعبيري الشعبي.

3 – تمزج لغة السير الشعبية ما بين الفصحى والعامية ، ففي سيرة "المهلهل بن ربيعة" يخاطب جساس خالته سعاد الشاعرة قائلا : « وذمة العرب وشهر رجب ، لقد تكلمت بالصواب وأنا من الآن وصاعدا لست أحسب له أدنى حساب، لأنه قد اعتز وتمرد ولا عاد يحسب حساب لأحد ، أنا لابد لي أن أطالبه أن يقاسمني على أملاك المملكة وإلا ألقيته في التهلكة، فروحي واطلقي ناقتك لكي ترعى في أحسن البساتين والمراعي » [2]، وجاء نسيج لغة هذه السيرة كله على هذا الأسلوب الذي يتراوح بين الفصحى أحيانا والعامية أحيانا أخرى .

4 – تعتمد السير الشعبية على بعض مبادئ السرد القصصي منها : الحبكة والصراع والحوار ...

5 – إن السير الشعبية مجهولة المؤلف ، وإن نسبت بعض السير لمؤلفين بعينهم مثل سيرة الظاهر بيبرس فهي منسوبة تاريخيا إلى محي الدين بن عبد الظاهر (« الذي لم يعثر على أي أثر لشخصيته في متن السيرة وإنما اختفى وراء شخصيات لا يذكر منها إلا الكنية كالدينياري والدويداري ، وناظر الجيش ، وكاتم السر والصاحب »

[1] – انظر سيرة الزير سالم أبو ليلي المهلهل بن ربيعة ، تنسيق وتهذيب عمر أبو النصر ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1975 ، ص 35/34.

[2] – المصدر نفسه ، ص 82.

) [1] ، ثم توجد سيرة "عنترة بن شداد" التي زُعم أنها من تأليف "الأصمعي"، لكن الدراسات شككت في نسبتها إليه [2] ، أما في السيرة موضوع الدراسة فلا أثر لمؤلفها .

6 – تجمع السير الشعبية بين السرد النثري والنظم الشعري ، وعادة ما يصحب الشعر النثر في مواقف الحزن والرثاء والعتاب ، فهذا مهلهل بن ربيعة يلقي قصيدته في رثاء أخيه كليب بعدما « أرته اليمامة وصية أخيه المكتوبة على صخر فقرأها ، ثم بكى وتنهد ورثاه بهذا القصيد أمام السادات وأكثر العمد ، وهي أجود مراثي العرب وأحسن أشعار أهل الفضل والأدب :

كليب لا خير في الدنيا وما فيها إن أنت خليتها من يبق واليها

نعى النعاة كليبا فقلت لهم مالت بنا الأرض أم مالت رواسيها

ليت السماء على من تحتها وقعت وحالت الارض فاندكت أعاليها [3]

ومن الجدير بالذكر إشارة بعض الدارسين إلى وجود روايات شعرية كاملة لبعض السير الشعبية العربية التي يعتقد أنها اندثرت أو تداخلت مع بعض السير الأخرى، من ذلك مثلا ما يقال عن السيرة المنسوبة للملك اليماني التبع حسان ، فمن المرجح أن هذا الملك « كان بدوره – بطلا لسيرة أو ملحمة مندثرة، كانت سيرة تبع حسان اليماني تحكي عن فتوحات ومأثورات ذلك الملك المتجبر ، الذي كان يسعده التغني منشدا بجوره : "ملك الأرض جورا واقتدارا .." » [4] .

7 – تمثل السير الشعبية العربية امتدادا لتاريخ الشعب العربي منذ الجاهلية وحتى نهايات العصر المملوكي من جهة ، وتحمل من جهة أخرى سمة العصر الذي دونت فيه ، وقد طبعتها هذه السمة بطابع إسلامي .

8 – يشكل الدين المحور الرئيسي في هذه السير ، وهو دين التوحيد في السير الجاهلية، مثل سيرة المهلهل بن ربيعة ، ودين الإسلام في السير التي تجري أحداثها بعد الإسلام مثل : سيرة الأميرة ذات الهمة .

9 – تتميزالسيرة الشعبية بتداخل الأحداث والأزمنة فنجد أبطالا من العصر الجاهلي يحضرون أحداثا في العصر الإسلامي، مع أن المصادر الأدبية تؤكد انتماءهم إلى العصر الجاهلي، مثل المهلهل ابن ربيعة بطل حرب

---

[1] – صالح جديد : البنية السردية في سيرة الملك الظاهر بيبرس ، رسالة ماجستير (مخطوط) ، جامعة عنابة ، الجزائر 1999 ، ص 23.

[2] – فاروق خورشيد : محمود ذهني : فن كتابة السيرة الشعبية ، ص 58/56.

[3] – سيرة الزير سالم ، ص 98.

[4] – شوقي عبد الحكيم : السير والملاحم الشعبية العربية ، ص 197.

البسوس الشهيرة بين قبيلة بني بكر وقبيلة بني تغلب ، التي جرت وقائعها في الفترة ما قبل الإسلام ، وهي إحدى أيام العرب التي تعد من مفاخرهم لقيامها على مبدأ العصبية القبلية، أما في السيرة الشعبية التي تحمل اسم هذا البطل، فقد أصبح بطلا ملحميا شعبيا يدافع عن قضيتي المساواة والعدل اللتان فقدتا في العصر المملوكي .

10 – تصور السير الشعبية معتقدات الشعب وسلوكاته الموروثة كالإيمان بالحلم والسحر والعرافة، وهي كلها ممارسات تساعد البطل على مواجهة الأعداء والصعاب، كما تساعد البطل المضاد على وضع العراقيل والحيل .

11 – تصور هذه السير الفروسية والشجاعة العربية في جميع عصورها كما تصور قيما إسلامية وإنسانية نبيلة مثل : الحب والوفاء والكرم ...

12 – يغلب على هذه السير الطابع الأسطوري ، حيث تكثر فيها المبالغات والوصف الخارق لأبطالها ، فهي تعج بحركة غير عادية وغير مألوفة .

6 – عصور السيرة الشعبية :

تدور السير الشعبية حول أحداث واقعية ممزوجة بالخيال مستمدة من ثلاثة عصور لها دلالتها الاجتماعية والقومية في تاريخ الأدب العربي ، هذه العصور هي :

أ – العصر الجاهلي :

انتقى رواة سيرنا الشعبية العربية شخصيات معروفة ببطولاتها من العصر الجاهلي ، عصر نقاء الجنس العربي ، وأعطوها أبعاد عصرهم وحملوها قضايا الشعب العربي الذي عانى من الظلم والحرمان ، فعنترة بن شداد [1] بطل السيرة التي تحمل اسمه يدافع عن نسبه الضائع وحريته ، تلك الحرية التي افتقدها الإنسان العربي في عصر المماليك ، ويصور لنا سيف بن ذي يزن [2] في سيرته الشعبية كل معاني الوحدة والترابط والتضامن ، هذه المعاني التي أدى غيابها إلى استفحال الغزوين : المغولي والصليبي ، كما تبرز لنا شخصية الشاعر الجاهلي أبو ليلى المهلهل بن ربيعة [3] ، بطلا عربيا قوميا ثائرا يطالب بثأر أخيه المغتال ، وعادة الأخذ بالثأر عادة تفشت في المجتمع العربي

---

[1] – عنترة بن شداد : أشهر فرسان الجاهلية ، ومن شعراء الطبقة الأولى ، شهد حرب داحس والغبراء ، وينسب إليه ديوان شعر .

[2] – سيف بن ذي يزن الحميري من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم وقيل اسمه معد يكرب كان الأحباش سيحتلون بلاده فقصد سيف الروم فلم يلتفت إليه ، فقصد النعمان بن المنذر فأوصله إلى كسرى أنوشروان فأنجده ، فاسترد اليمن ومكث الملك سيف في الملك 25 سنة ، ثم إئتمر به بعض الأحباش وقتلوه .

[3] – شاعر من أبطال العرب في الجاهلية ، ومشعل حرب البسوس التي دامت 40 سنة.

الجاهلي ، حتى عُدت من مفاخره ، فحين « يقتل أحدهم أو يمس عرضهم بأذى فلا شيء في أعينهم يعوض الدم المسفوح إلا الدم ، ولا يقر لهم قرار أو يطيب عيش إلا إذا شفي غليلهم وثأروا من خصومهم » [1]

ووظفت سيرة المهلهل الشعبية عادة الأخذ بالثأر توظيفا إيجابيا ينقض كل مصادفة تاريخية عن البطل التاريخي لأن انتقاء الرواة الشعبيين لهذه الشخصية هو انتقاء أملته ظروف الحقبة التي ازدهرت فيها السير ودونت ، فكانت تحتاج إلى أبطال لهم القدرة على هزم الأعداء وإعادة مجد العرب الضائع ، فانتخاب "عنترة" مثلا بطلا للسيرة التي اشتهرت باسمه مثال رائع عن بطولاته وفروسيته التي اشتهر بها ، ولم يكن قصد الراوي الشعبي انتخاب هذه الشخصية من عصر مغمور ، « وإنما اعتصم بموطنه الأصلي وهو الجزيرة العربية ، والتفت إلى عصر نقاء الجنس وهو الجاهلية عندما أحس بوجدانه القومي ينبض دفاعا عن الحمى والنفس بعد انحسار موجة الفتوحات الإسلامية واستئثار غير العرب من المماليك وأشباههم بمقدرات الحكم في أجزاء من الموطن العربي ، وإبان ذلك الصراع الدموي الطويل الذي عرف بالحروب الصليبية » [2] .

إن اختيار الرواة تلك الشخصيات التي تعود إلى العصر الجاهلي كما تذكر المصادر الأدبية العربية حتمية أملتها عليهم ظروف العصر ، لذا كان عملهم مقصودا له مبرراته التي تدحض كل رؤية ربما تتهمه بالسلبية « فليس اختيار قصة الزير سالم وثأره لأخيه مصادفة بل هي فعل متعمد مدروس ومفهوم بطريقة معينة هي الثأر من الظالم » [3] .

بدأت وقائع هذه السيرة الشعبية بظلم التبع حسان اليماني للملك ربيعة والد كليب ابن وائل حين غدر به بدون سبب ، فقام كليب وثأر من هذا الظالم الباغي وقتله ، وهو يقول: « لا بد من قتلك بحد الحسام حتى ترتاح الناس من شرك وتأمن عاقبة غدرك » [4]، وتستمر أحداث السيرة قائمة على عادة الأخذ بالثأر ، حيث يقتل جساس كليبا ويقوم أخوه بالثأر له ، وهكذا تستمر الأحداث ؛ معارك دامية متتالية قوامها البطولة المستمدة من نخوة العربي وحميته في الحفاظ على عرضه وشرفه ، « وتشتعل نار حرب شعواء بين بكر وتغلب ، وتتجلى البطولة في أروع مظاهرها، وتنتظم الحرب ملحمة على أجمل ما تكون الملاحم » [5].

---

[1] – زبير دراقي : المفيد الغالي في الأدب الجاهلي ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط) 1994 ، ص 12.

[2] – عبد الحميد يونس : دفاع عن الفولكلور ، ص 150.

[3] – طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 288/287.

[4] – سيرة الزير سالم : ص 58.

[5] – محمود سليم الحوت : في طريق الميثولوجيا عند العرب ، (بحث مسهب في المعتقدات والأساطير العربية قبل الإسلام) ، دار النهار للنشر ، ط 1 ، 1983 ، ص 193.

ومما يدل على استغلال الرواة لهذه الحرب التي سميت حرب البسوس ، وتوظيفها توظيفا إيجابيا يتماشى وروح العصر ومقتضياته تصويرهم لبعض الشخصيات ، تصويرا يختلف عن وضعها في قصة البسوس الشهيرة ، ومنها شخصية الملك كليب الذي يقول عنه أبو الفرج الأصفهاني « أنه عزّ وساد في ربيعة فبغى بغيا شديدا ، وكان هو الذي ينزل منازلهم ويرحلهم ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره ، فبلغ من عزّه وبغيه أنه اتخذ جِرْوَ كلب، فكان إذا نزل منزلا به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه ، وكان يفعل هذا بحياض الماء ، فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب ، فضرب به المثل في العزّ فقيل "أعز من كليب وائل" ... وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس ، ولا يحتبي أحد في مجلسه غيره ، فقتله جساس بن مرة » [1] .

أما في السيرة الشعبية فقد وظفت شخصية كليب بن وائل توظيفا عكسيا حتى تكون لعادة الأخذ بالثأر قيمة إيجابية لا مجرد التفاخر والتعويض عن الدم المسفوح ، لذا لم يظهر الملك كليب في صورة الظالم المتمرد ، « بل هو رقيق القلب حنون يشفق على جساس عندما لاعبه بالجريدة وتغلب عليه وأسال الدم من فمه وأنفه ، إذ قال له كليب : قم يا ابن العم ، فإن كنت لا تريد أن تلعب غير هذه الجريدة فاسرع واضربني بها ، فينتهي اللعب ، وقد اعترف العبد الذي ذبحه بعد أن طعنه جساس غدرا ، بنبل كليب وكرم أخلاقه إذ قال : والله يا أمير ما تستحق إلا كل خير ويدي لا تطاوعني على ذبحك » [2] .

ويؤكد كلام العبد الذي ذبح كليب بعد طعنة جساس على الصورة المشرقة التي أعطتها السيرة له ، وهذا يدل على براعة الرواة الشعبيين من جهة وقدرتهم على تغيير مواقف الشخصيات وجعلها تعيش مع الحقبة التاريخية التي عانى فيها الشعب العربي الأمرين من جهة أخرى ، « فكليب مظلوم في السيرة تماما ، وجساس بن مرة ظالم ما في ذلك شك ، ولعل المقدمة التي سبقت حادثة قتل كليب ، وما ذهبت إليه من أن البسوس أخت التبع حسان ليست إلا محاولة جادة من الرواة لتبيض صفحة كليب وتأكيد ظلم جساس ، ودفع قصة البسوس في الخط الذي يرمي إليه الرواة ، وهو الظلم والثأر من الظالم مهما طالت الأزمان وتعددت الأخطار » [3] ، ومن هنا يبرز المهلهل بطلا مطالبا بالانتقام من الظالم الذي فتك بحياة أخيه، فتصوره السيرة هو الآخر، ثائرا عازما على الأخذ بالثأر مهما كان الثمن، وتحتد لهجته –في الأخذ بالثأر – بعد الحديث الذي دار بينه وبين همام صديقه وأخو عدّوه ، وكان همّام قد طلب من الزير قتله عوض أخيه ، وكان جواب المهلهل بالرفض إذ قال له: « وحق من يعرف الغيث وروح أخي وحبيبي كليب أني لا أرفع السيف عنكم حتى أشفي غليلي منكم ثم أقتلكم عن بكرة أبيكم واهتك النساء والبنات وأجعلكم مثلا بين الكائنات ولو لم تكن زوج أخي وسميري ، ما كنت أعلمتك بما

---

[1] – أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، المجلد الخامس ، ص 29.

[2] – طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 289/288.

[3] – المرجع نفسه ، ص 289.

في ضميري ، بل كنت قتلتك في الحال وأورثتك النكال فسر الآن إلى الأطلال ولا عدت تريني وجهك في الحرب والقتال » [1] .

وتسير لهجة المهلهل على هذا النسق من أول البلاء في الحرب إلى نهايته بموته ، ولم يعرف في حياته الهدوء ، ولا راحة البال ، ولم يرحم في رحلته الانتقامية الصغير والكبير ، العدو والصديق والأخت وابنها ، حتى ثأر لأخيه قرة العين ومهجة الفؤاد – كما كان يقول– وشفى غليله من قاتله .

إن إصرار المهلهل على القتل نابع من إصرار الفرد العربي إبان الجاهلية على تحقيق توازنه داخل المجتمع ، لأن المسألة أصبحت عنده تتعلق بالعرض والشرف ولا شيء يعوضهما إلا الدم سواء كان ظالما أم مظلوما ، وإذا كان منبع إصرار المهلهل الجاهلية باعتبار امتداد جذور قصته إليها، فإن إصراره على القتل في سيرته الشعبية نابع أساسا من إحساسه العميق بالظلم ، لذا « فليست سيرة المهلهل قصة ثأر عادية ، بل هي قصة الظلم الذي يضرب بقسوة والثأر من هذا الظالم وإن طال الزمن » [2] .

لقد هدف الرواة الشعبيين عندما عادوا إلى العصر الجاهلي وانتخبوا تلك الشخصيات التاريخية أبطالا لسيرهم ، بعث وإحياء القومية العربية من جديد ، والعصر الوحيد الذي لم يضارع فيه أحد وصول العربي إلى ذروة العصبية هو العصر الجاهلي لذلك فالعرب « يعدون العصر الجاهلي وكأنه العصر الذهبي للعروبة ، أي أنه العصر الذي تفتحت فيه خصائصهم القومية تفتحا كاملا » [3] .

وتحاول السيرة من هذا الجانب استعادة تقاليد الأجداد والأسلاف حتى يكون أولئك الأبطال بمثابة رسائل حقيقية من الشعب إلى الحكام المماليك الذين تولوا أمور الرعية في بعض البلاد العربية مثل : مصر وبلاد الشام ، وعاثوا فيها فسادا واستهدفت السير الشعبية بهذا الرجوع المقصود التذكير بقوة العرب وشجاعتهم وفروسيتهم والتحذير من مغبة الاستمرار في الظلم .

ولم يكتف رواة السير الشعبية بانتخاب تلك الشخصيات من العصر الجاهلي ، عصر الوثنية ، بل حمّلوها قيم وتعاليم الدين الإسلامي ، فهم يوحدون الله ويذكرون أسماءه الحسنى ويسيرون تحت حكم القدر ولا يعصون له أمرا، وسيرة المهلهل الشعبية هي واحدة من تلك السير – المنتخب أبطالها من العصر الجاهلي – التي مستها روح الدين الإسلامي ، فيذكر راوي هذه السيرة أن الأمير مرة عندما اجتمع مع أبناءه بعد ما قتل ابنه جساس كليبا كان قد تعوذ بالله وهلل قائلا : العياذ بالله من كيد الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي

---

[1] – سيرة الزير سالم ، ص 93.

[2] – طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 290.

[3] – كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية (منذ ظهور الإسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية ، المجلد الأول ، ترجمة بدر الدين القاسم ، ط1 ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1972 ، ص 10.

العظيم، ثم قال لأولاده: إن أخاكم همام له عند الزير مدة أيام فنخاف أن يعلم الزير بقتل أخيه فيقتله ولا يبقيه »[1].

لقد عمل الرواة على شحن السير الشعبية بمختلف القيم والمثل التي تدور حول عقيدة التوحيد ، وهي قيم تبعد عن حياة العرب الذين ألفوا عبادة الأصنام ، فما عادوا يتقبلون سلطانا عليهم غير تلك الألهة المتعددة ، وإن وجد فيهم من اعتنق التوحيد فهو لا يكاد أن يكون له تأثير واضح على المجتمع .

إن إقرار عالم السير الشعبية لبعض العادات والتقاليد الجاهلية لا يعطي إلا تفسيرا عن تعصب العرب لبني جنسهم ، ودليلنا على ذلك عدم توظيف الرواة معتقدات وثنية بعينها ، بل اكتفوا بأخذ الفكرة وإعادة صياغتها صياغة عربية تتماشى مع معتقدات الإنسان العربي المسلم وعاداته وتقاليده ، فلا وجود للآلهة وأنصافها في هذا الإبداع الشعبي ، وتكفي الإشارة إلى أن الدين الإسلامي كان قد قضى نهائيا على عهود الوثنية القديمة وما صاحبها من تعددية إلهية .

لقد كانت عملية تفريغ هذه الأفكار من ميولاتها العقدية ضرورة حتمية ومطلبا مشروعا في ظل غياب الوازع الديني في عصر المماليك ، وتطلبت عملية التفريغ هذه عملية شحن ثانية كانت مستوعبة وقادرة على حمل البيئة العربية الممتدة عبر الزمان والمكان ، أما عن الترسبات الوثنية الموجودة في السيرة كالنبوءة وضرب الرمل وإحراق الموتى والعرافة والسحر والكهانة ... فهي دليل على بقائها مستمرة في لا وعي الإنسان العربي وشاهد على تشبعه في أزمنة غابرة بمعتقدات وسلوكات وثنية .

ب – العصر الذهبي :

وبدايته من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة العباسية بسقوط بغداد على يد المغول سنة 656 هـ .

تظهر صورة هذا العصر في السير الشعبية التي عبرت في مجملها عن قضيتين أساسيتين تمثلتا في الدفاع عن العروبة والدين الإسلامي ، وقد اختلفت درجة ظهور ملامح هذا العصر من سيرة إلى أخرى ، ووصلت إلى درجة الغموض في بعضها مثل سيرة المهلهل بن ربيعة، حيث لا يمكننا التدليل على صورة هذا العصر في هذه السيرة، إلا إذا ربطناها بقضية الدفاع عن العروبة التي تجسدها عادة الأخذ بالثأر .

ويكفي أن نمثل لهذا العصر بسيرة الأميرة الفلسطينية "ذات الهمة"، لأنها شملت هذه المرحلة على طول امتدادها من صدر الإسلام إلى العصر العباسي الثاني .

---

[1] – سيرة الزير سالم ، ص 92.

تنسب إذن هذه السيرة إلى امرأة فلسطينية من قبيلة بني كلاب ، واسمها الحقيقي في السيرة : « فاطمة بنت مظلوم بن الصحصاح بن جندبة ، وقد لقبت بذات الهمة عندما ظهرت عليها أمارات البطولة النادرة إلى درجة أن أطلق الناس عليها ذات الهمة » [1] .

وتتميز هذه السيرة عن باقي السير بعدة مميزات منها أنها تعتبر أطول سيرة في تاريخ الأدب الشعبي العربي ، حيث يصل عدد مجلداتها إلى سبع مجلدات ، كما تتميز عنها في كونها تعتبر السيرة الوحيدة المنسوبة إلى امرأة ، وهذا ما يعطيها أهمية كبرى من جانب إبرازها للبطولة النسوية خاصة إذا عرفنا أن الحقبة التي ازدهرت فيها السير ودونت كانت تحتاج إلى أبطال أقوياء ، ولم تكن "ذات الهمة" أو فاطمة بنت مظلوم أقل منهم شجاعة وقوة، ففي « هذه السيرة نجد أنفسنا أمام امرأة فارسة بطلة لا تقل شجاعة وقوة وبأس عن أبطال خارقين مثل الملك سيف والمهلهل وعنترة وحمزة، بل ربما تتفوق عليهم في بعض الأحيان » [2] .

كما تتميز هذه السيرة بكونها تعتبر سيرة أنساب قبيلة ، فهي « لا تغفل التأريخ لتلك الأسرة الفلسطينية الحاكمة التي من صلبها انحدرت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب » [3].

وقد عالجت هذه السيرة – التي حظيت بالدراسة – قضية الثغور المتاخمة للدولتين الإسلامية والبيزنطية وما جرى بين الدولتين من معارك ، كانت فيها الكلمة الأولى والأخيرة للبطلة الفارسة ذات الهمة التي نزحت إلى منطقة الثغور بعدما ولدت ابنها عبد الوهاب ، حيث كان مولده بداية لصفحة مشرقة في تاريخها ذلك أنها « أخذت تستعد لاستقبال مرحلة جديدة في حياتها تتسم بالكفاح الخالص في سبيل نصرة الدين الإسلامي والشعب العربي » [4] .

ولم يكن الأمر سهلا حينما نزحت ذات الهمة إلى منطقة الثغور حيث واجهتها صعوبات كبيرة ، فقد تعمد زوجها عرقلة مسيرتها الكفاحية، بعدما أبدته له من غلظة طبع ، معللة بأنها خلقت للسيف والحرب، ولم يمنعها زواجه منها من تحقيق رغبتها ومواصلة مسيرتها، إذ « لما أرغمت على عقد قرانها من ابن عمها والدخول بها غدرا، لم تعتبر ذلك قيدا طوقت به ، وإنما تركت زوجها حرة مختارة وضمت ابنها إليها ورحلت مع قومها إلى منطقة الثغور لتحارب متطوعة في سبيل اعتلاء كلمة الحق » [5] .

---

[1] – نبيلة إبراهيم : الأميرة ذات الهمة ، دراسة مقارنة ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، مصر ، ط 5 ، 1994 ، ص 45.

[2] – طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 244.

[3] – شوقي عبد الحكيم : السير والملاحم الشعبية العربية ، ص 213.

[4] – نبيلة إبراهيم : الأميرة ذات الهمة ، دراسة مقارنة ، ص 46.

[5] – المرجع نفسه ، ص 96 .

استطاعت الأميرة ذات الهمة أن تكون قائدة جيش قبيلتها ، وأبلت بلاء حسنا في المعارك التي جرت بين الدولتين العربية والبيزنطية ، كما كانت لها اليد الطولى في حل مشاكل الدولة الداخلية إذ استطاعت تحريك أركان الدولة الإسلامية بآرائها السديدة والتأثير في قرارات الخلفاء بجرأتها وفصاحة لسانها ، كما استطاعت صنع المجد لقبيلة بني كلاب التي تصورها السيرة في صراع قبلي دائم مع قبيلة بني سليم .

وتقترب السيرة – من هذه الجوانب – من التاريخ ، لأن أحداثها « كلها أو جلّها من أحداث التاريخ ، فالسيرة تبدأ بعصر عبد الملك بن مروان وتنتهي بعصر الواثق بالله ، وقد مرت الدولة الإسلامية في تلك الحقبة من الزمن بحوادث داخلية خطيرة ، وكل هذه الحوادث عرضتها السيرة في إسهاب ، ولونها خيال الراوي ، بحيث أصبحت تأخذ طابعا قصصيا جذابا .

فانتقال الخلافة من الدولة الأموية إلى العباسية ، ونكبة البرامكة والصراع بين الأمين والمأمون ، كل هذا تحكيه السيرة في عرض أقرب ما يكون إلى التاريخ ، كما أنها تحاول الربط بينه وبين أحداث السيرة الرئيسية التي تتلخص في موقف بني كلاب من حوادث عصرهم » [1] .

لقد أعاد الرواة من هذه الزاوية تشكيل المادة التاريخية التي بنيت عليها هذه السيرة وجعلوها « تعيش مع الشعب بوصفها أروع نماذج للبطولة » [2] ، عندما حوروا أحداثها بحيث أصبحت متماشية مع طموحات الشعب العربي لأبطال حقيقيين تكون لهم القدرة على تحريك مشاعر الشعب وعواطفه ، وقد استطاعت المرأة الفارسة "ذات الهمة" في سيرتها الشعبية تحريك مشاعرهم وعواطفهم .

ولا شك أن بطولات الأميرة الفلسطينية التي تخلد تاريخ قبيلتها بني كلاب بالدرجة الأولى ، اكتملت بوجود بطلين هما : ابنها عبد الوهاب والسيد البطال ، البطل الشعبي ، « وبهذا نستطيع أن نقول أن القوة اكتملت لجيش بني كلاب ، فالقيادة السليمة والقوة تمثلت في ذات الهمة ، والبطولة النادرة تمثلت في ابنها عبد الوهاب ، ثم أن المقدرة على اصطناع الحيل بلغت قمتها عند البطال ، فإذا أضفنا إلى هذا استبسال جميع أفراد الجيش وتفانيهم في أداء واجبهم ، أدركنا كيف أن عوامل النجاح كانت مهيأة لجيش الشعب العربي ، الذي ترك دياره واستقر في منطقة الدفاع عن الإسلام والأمة الإسلامية » [3] .

حاول راوي السيرة من خلال التفاتته إلى هؤلاء الأبطال تقديم صورة أفضل، تطمح لبناء مجتمع مثالي ينعم بالعدل والمساواة والحرية ، خاصة بعد تفتت الدولة العباسية وضياع سلطانها، وما حدث فيها من صراع دموي على السلطة واستئثار غير العرب بالحكم ، كل هذه المبادئ (العدل ، المساواة ، الحرية) « كان لها أبلغ

[1] – المرجع السابق ، ص 77/76.

[2] – المرجع نفسه ، ص 73.

[3] – المرجع السابق ، ص 52/51.

الأثر في حياة الشعوب الإسلامية التي تطلعت إلى بطل قائد يستعيد أمجاد العرب وسلطنتهم ويقهر أعداءهم الإفرنج والمغول ويوحد كلمتهم ويحقق العدالة الاجتماعية بعد أن يبطش بمسببي الفساد والولاة الظالمين » [1] .

لذلك كانت إلتفاتة هذه السيرة على سبيل المثال إلى المرحلة الذهبية محاولة لتحريك الهمم وشحن العزائم لمواجهة محن وظروف العصر الذي دونت فيه شأنها شأن باقي السير الأخرى ، ولم تكن هذه الالتفاتة إلا أملا يناشد « الماضي الذي شهد انتصارات لم يزل الشعب يطرب لها وعرف عدالة لم تزل تهزه عجبا وتملؤه أملا بتجددها » [2] .

والثابت أن العصر الذهبي كان يمثل مرحلة ازدهار حياة الإنسان العربي ، إذ عرف فيه مفاهيم جديدة أدخلها الإسلام في حياته مثل : الإيمان بالله والإيمان بقضائه وقدره ، ونصرة الحق حتى ولو كان من السلطة الحاكمة نفسها.. ومن أجل التطلع إلى هذه المفاهيم ناشد الرواة الشعبيين عالما مشرقا ، « فتغنى الأدب الشعبي بأيام الإسلام الأولى ، زمن النبي والخفاء الراشدين ، أي تغني بالمرحلة الإسلامية المثالية التي نعم فيها العامة بتساو ديمقراطي مع الحكام ، وحصلوا على أكبر قدر من الحقوق ، والتزموا بأقل قدر من الواجبات ، فظلت تلك المرحلة الذهبية تداعب مخيلتهم وصارت رمزا لحياة العدالة والمساواة داخليا والهيبة والقوة والنصر خارجيا . وظل الشعب يحلم بعودتها ويسعى جاهدا إليها » [3] .

وبين هذا وذاك عاش الفرد العربي ينعم بعزته وأنفته وعروبته التي لم تمسسها يد الأغراب ولم تتطاول عليها كما حدث في العصور التالية .

ج – العصر المملوكي :

كان للمماليك أهمية بالغة في تاريخ الأمة العربية الإسلامية، فقد استخدمهم بنو العباس لخدمتهم بعدما رأوا أن النفوذ الفارسي في ازدياد ، فاعتمدوا عليهم في تقوية سلطانهم ، فأدى ذلك إلى تقوية نفوذهم خاصة في بلاد الشام ومصر التي تملكوا عليها بعد أن استطاع أحمد بن طولون، وهو المملوك التركي إقامة دولته عليها سنة (935هـ)، وأكثر الحكام من بعده في استجلاب المماليك والاعتماد عليهم، خاصة في عهد السلطان نجم الدين

[1] – طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 88.

[2] – المرجع نفسه ، ص 64.

[3] – طلال حرب ، أولية النص ، ص 78 / 79 .

(1240م-1249م) ، واتخذ الحكام « منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم » [1] .

وازدادت أهمية المماليك إذ أصبحت لهم مكانة متميزة في عهد الدولة الأيوبية ، الأمر الذي دفعهم إلى استغلال الوضع ، فقد ساعدوا بعض الحكام على الصعود للحكم والإطاحة بالدولة الأيوبية، ولم تقف خطورتهم إلى هذا الحد، بل إنهم عبثوا بمصالح الدولة وعاثوا فسادا في البلاد مما أدى إلى غضب السكان ، ولم يردعهم غضبهم بل قويت شوكتهم بعدما أثبتوا قدرتهم على مواجهة الخطر الداهم آنذاك على الأمة الإسلامية المتمثل في الحملات الصليبية إضافة إلى خطر المغول [2] الداهم على الشرق الإسلامي .

وبعدما تغلب المماليك على الحملة الصليبية الأولى بقيادة لويس التاسع جوبهوا بمعاملة سيئة من تورنشاه -ابن السلطان الأيوبي "الصالح نجم الدين"- الذي أذلهم وحسدهم على نصرهم ، وصار يدبر المؤامرات لقتلهم ، وفي هذه الأثناء استغلت شجرة الدر قوة المماليك فحرضتهم على قتل تورنشاه ابن زوجها ، الذي أصبح يهددها هي الأخرى بالقتل بدعوى استيلائها على مال أبيه بعد موته ، « وغدا المماليك بعد مقتل تورنشاه أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في شؤون البلاد، وقد اختار المماليك شجرة الدر -أرملة أستاذهم الصالح أيوب- لتكون سلطانة على البلاد » [3] .

واستطاعت شجرة الدر أن تقيم دولتها بسيطرتها على شؤون البلاد بعد أن فرضت على الصليبيين مغادرتها، لكن ملوك الأيوبين في الشام تحرجوا من حكم السلطانة وأصبحوا يكيدون للإطاحة بها ، وساعدهم موقف الخليفة العباسي المؤيد لهم ، ولم تجد شجرة الدر من خلاص غير التزوج من قائد جيشها " عز الدين أيبك" الذي لم يرضوا عنه هو الآخر لأنه مملوك ، فعينوا إلى جنبه سلطانا من الأسرة الأيوبية وهو الملك الأشرف موسى ، ووجد القائد "المعز أيبك" نفسه محاطا بجملة من المخاطر، فالصليبيون يترقبون ويتحينون الفرصة للهجوم مرة ثانية ، وعدم رضى الحكام الأيوبيين عنه ، كل هذه الظروف أدت إلى ظهور عصبية مماليكية ، أدت بهم إلى قمع هجمات الأيوبيين عليهم سنة 1251م، في الوقت الذي أخذت فيه الخلافة العباسية في بغداد « تتحسس بخطر التتار الذين اقتربوا بزعامة هولاكوا من العراق، وقد رأى الخليفة المستعصم بالله العباسي أن يعمل بسرعة

---

[1] - سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ، ط 1 1965 ، ص 04.

[2] - المغول : قبائل رعوية آسيوية ، دفعها تناقص الأمطار إلى الهجرة نحو الغرب ، من أشهر قواد هذه القبائل جنكيز خان الذي استولى في أوائل القرن 13 م على الصين ثم انتقل غربا نحو شرق أوروبا والشرق الأدنى ، وهولاكو الذي كان على يد فتح إيران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن في منتصف ق 13 م ، وهي الفترة التي اقتحم فيها المغول بغداد بقيادته ، فقتلوا أهلها في مذبحة رهيبة ، ثم اشعلوا النار في المدينة ، فأتت على كثير من تراث العباسيين .

[3] - المرجع السابق ، ص 11.

لتوحيد صفوف المسلمين (...) ولذلك أرسل رسولا إلى صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز أيبك وأن يتفق على محاربة التتار » [1] .

وطاب الحكم للسلطان "أيبك" مدة قصيرة غير أنه سرعان ما أحس بغدر المماليك الذين ساعدوه على الحكم بزواجه من شجرة الدر وواجهته في الوقت نفسه ثورة الأعراب الذين رفضوا أن يكون الملك بأيد غير عربية، واستطاع السلطان مواجهة المماليك المتمركزين في الشام ، ولم يكد يتخلص منهم حتى ظهر له خطر آخر تمثل في رغبة شجرة لدر زوجته في العودة إلى الحكم ، ولما رأته متشبثا به دبرت له حيلة في قصره فقتلته ، لكن الحيلة لم تنجها من غضب أتباعه فدبروا بدورهم مؤامرة لقتلها، ونجحوا فيما عقدوا، وانتهت بذلك حياة شجرة الدر وزوجها المعز أيبك .

وبموت السلطان "المعز أيبك" بدأت أركان الدولة المملوكية تترسخ بظهور السلطان "المظفر قطز" في مصر ، الذي استغل ظروف الحكم أنذاك، فقرر مقاومة التتار وعدم الاستسلام لهم ، فجمع الجيش واتجه نحو الشام ، وكان "كتبغا" [2] على رأس جيش التتار، « والتقى الجيشان في غزة ، وكان النصر حليف المماليك وتمكنوا من احتلال غزة مما أدى إلى تقوية الهمم ومواصلة الطريق باتجاه الأردن ، بعد أن طلبوا من الصليبيين السماح لهم بالمرور عبر الأراضي التي سيطروا عليها ، واتجهوا شرقا عبر الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة، لاسترداد دمشق من التتار ، وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة ، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت –بين بيسان ونابلس– وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس البندقداري تتابع سيرها لوحدها وفي تلك الأثناء كان كتبغا قد وصل فالتقى بالمماليك عند قرية عين جالوت في 3 سبتمبر 1260م » [3] ، وقد أظهر المماليك بقيادة قطز شجاعة كبيرة بعين جالوت أدت إلى تفويت الفرصة على كتبغا قائد جيش التتار .

وبعد رجوع السلطان المظفر قطز إلى مصر قتله الظاهر بيبرس البندقداري الذي اختاره المماليك سلطانا عليهم، وتمكن السلطان الجديد بدهائه السياسي من توطيد أركان دولته، كما تمكن من تهدئة الوضع، إذ استطاع الاستيلاء على معاقل الصليبيين في فلسطين « وهكذا زال الخطر الصليبي كما زال الخطر التتاري على البلاد المملوكية في الشام وأخذت دولة سلاطين المماليك تستقر في مصر » [4] .

لقد دافع المماليك عن الخلافة والراية الإسلامية عندما استطاعوا رد كل الأخطار الخارجية ، لكن لم تكن فئة المماليك التي تربت في أحضان الأيوبيين بأقل قسوة من التتار والصليبيين ، فقد اتسم عصرهم بالتناقضات

---

[1] – سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص 18/17.

[2] – كتبغا : قائد من قواد التتار أوكل له هولاكو قيادة الجيش عندما رجع إلى آسيا على إثر سماعه بمرض أخيه منكوفان .

[3] – المرجع السابق ، ص 34.

[4] – السيد الباز العريني : المماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر (د.ط) 1967 ، ص 305.

الكبيرة والمآسي العجيبة على جميع الأصعدة ، فعلى المستوى السياسي قاموا بعزل الخلفاء وقتلتهم ، وفرضوا الضرائب الباهضة والعمل الإجباري على الشعب ، واعتقلوا الناس وسجنوهم وصادروا الأموال، « والواقع أن المماليك حكموا البلاد دائما بصوفهم طبقة عسكرية ممتازة استأثروا بالحكم وبشؤون الحرب ، ونظروا إلى الأهالي على أنهم أقل منهم درجة أو درجات لا ينبغي لهم أن يشاركوا في الحياة الحربية ، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة في شؤون الحكم بالقدر المحدود الذي تخوله صلاحيتهم » [1] .

أما على المستوى الاجتماعي ، فقد عانى الشعب ويلات الفقر والظلم والمرض والجهل، وأثرت معاملة المماليك للشعب تأثيرا كبيرا على العامة ، بالرغم من تمكنهم من دحر التتار والصليبيين ، فلم يقف الشعب موقفا سلبيا من هذه المعاناة بل كانت ردود فعله عنيفة ، فوقف الناس في وجه السلاطين والأمراء وطالبوا برحيلهم ، واقتحموا عليهم الأبواب في قصورهم وهجموا عليهم ، ونهضوا لمواجهة الحكام ومساعدة آخرين أملا في تغيير الأوضاع، وثارت بسبب ذلك ثورات صغيرة مثل ثورة العربان التي قامت في عهد السلطان "المعز أيبك"، « وقد حاول هذا السلطان أن يفيد من قوة لعربان في إحباط المحاولة التي قام بها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق لغزو مصر سنة 1250م ، ولكن العربان أنفوا من الخضوع للمماليك ، وثارت قبيلة بني تغلب ، وهي أقوى قبائل العربان في الصعيد –مصر– ونادى زعيمها حصن الدين بن تغلب نفسه ملكا على الصغيد (...) ولم يكتف بالسيطرة على الصعيد وإنما زحف على الوجه البحري ليستثير غضب العربان ضد سلطنة المماليك ، لكن السلطان الأيبك أرسل جيشا كبيرا ضده بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ، ونجح هذا الجيش في إنزال الهزيمة بالعربان واخضاعهم سنة 1253 » [2] .

وعلى المستوى الاقتصادي أوجد المماليك نظاما إقطاعيا مس القطاعات الرئيسية الثلاث: الزراعة والصناعة والتجارة، وارتبطت هذه القطاعات بنظام دولة المماليك الحربي، وتأثرت بحالة عدم الاستقرار الناجمة عن الاغتيالات المستمرة للسلاطين، واستغلال المسؤولين لهذه القطاعات بالنهب والسلب ، مما أدى إلى تدهورها على يد الطبقة الحاكمة التي « كانت كأخطبوط وجهت أصابعها في كل اتجاه وامتصت خيرات ومقدرات البلاد ، فعندما تنتهي من قطاع تبدأ بابتلاع مقدرات قطاع آخر ، فانهارت الدولة ماليا ، وتحول الكثيرون من الناس الذين أبقت عليهم الأمراض والأوبئة إلى أجناد في الحلقة » [3] .

---

[1] – سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص 308.

[2] – المرجع نفسه ، ص 314.

[3] – انطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية ، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ، دار الحداثة ، بيروت لبنان ، ط 2 ، 1982 ، ص 93.

ومما لوحظ على المستوى الفكري « تخلف اللغة العربية وتدهور الفكر والأدب والشعر إلى حد ما ودور التعليم إلى جانب قَمَم في الأدب واللغة لم يصل إليهما الفكر العربي الإسلامي في يوم من الأيام » [1] .

وأمام هذه الأوضاع التي آلت إليها البلاد العربية ، رجع الشعب إلى الدين يتوسل فيه المثال ، فتمتنت الرابطة الدينية وتعمق الشعور بالإسلام لدى فئات الشعب المقهورة ، واستحضرت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، بوصفهم أمثلة عن العدل ونقيض للحياة في عصرهم ، « وقد عبرت هذه الروح الإسلامية عن نفسها بالتعاطف مع الفرق الصوفية، والتعلق بالمدائح النبوية ، فازدهار هذه المدائح ليس مصادفة بل هو تمسك بشخص الرسول وأخلاقه وسيرته ونهجه » [2] .

كما حنّ الشعب إلى عروبته التي مستها خدوش هؤلاء المماليك الظالمين الذين آثروا استعمال لغاتهم على حساب اللغة العربية، بل وجد فيهم من لا يفقه الحرف العربي ، وإذا فقهه فهو لا يجيد قراءته حتى عند التلفظ بالشهادتين .

وحين عجزت اللغة العربية عن أداء وظيفتها الأدبية وجد الأدب الشعبي لنفسه مكانا قريبا من فئات الشعب المقهورة ، وراح الرواة يتغنون بأمجاد العرب الماضية للتذكير بالقيم الأصلية عن طريق رواية السير الشعبية ، « ومن المعروف أن السير الشعبية قد راجت رواجها العظيم في هذين العهدين ، وهو أمر ذو دلالة ومفتاح لفهم الأدب الشعبي العربي الذي تتمثل وظيفته الأولى كأي أدب شعبي آخر في تذكير الشعب دائما بالقيم الأصيلة المتوارثة التي تضمن للجماعة الشعبية بقاءها ، وذلك من خلال الشكل الجمالي ، فالأدب الشعبي المروي له بعدان : بعد أخلاقي يساعد على تثبيت القيم ، وبعد جمالي يروح عن النفس من ناحية ، ويعد أبلغ وسيلة لإثارة المشاعر بتلك القيم من ناحية أخرى » [3] .

حمّل الرواة ، السير الشعبية،إذن ، – أحد أشكال الأدب الشعب المروي – صورا صادقة عن حياة الإنسان العربي في عصر المماليك على جميع الأصعدة، وخلدوا فيها مواقفه من الحاكم وسلطته الظالمة ، وصورته في هيئة الرافض للظلم والمصّر على تحقيق العدالة التي كانت غائبة تماما عن دولة حملت راية الإسلام شعارا لها « لذلك لم يكن الاعتدال يسُد حاجة، ولعل هذه الحقيقة هي سبب هيجان الجمهور المتسمع إلى القصاص وهجومه على رجال العلم ، الذين حاولوا أكثر من مرة إنزال القاص وجمهوره من عالم الخيال الشافي إلى دنيا الواقع التي لا تغني » [4] .

---

[1] – طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 56.

[2] – المرجع نفسه ، ص 49.

[3] – صبري مسلم حمادي : أثير التراث الشعبي ، نقله طلال حرب : أولية النص ، 84.

[4] – المرجع نفسه ، ص 60.

ولما لجأ الشعب إلى السير مستمعا ومستمتعا لإيمانه بقدرة خيالها الشافي ، برز الرواة يستحضرون شخصيات تاريخية من الماضي ذات الصور المثالية والأبعاد القومية مثل المهلهل وسيف بن ذي يزن ، وحمزة العرب ، والأميرة ذات الهمة ... ولم يكن استلهامها من قبيل المتعة والترفيه بل كان من أجل تلبية رغبات وخواطر مكسورة وتطلعات كانت تتوق للانتصار على الاخوة الأعداء ، وبذلك « فالرواة لم يكتبوا قط تاريخا مضى بل كتبوا عن تطلعات عصرهم بصيغة الماضي، صوروا أمانيهم بوساطة الرموز التاريخية ، فليس هناك تعد على الحقيقة التاريخية ، لأن الرواة ليسوا مؤرخين ، وليس هناك ثقافة شعبية ضعيفة تخونها الذاكرة ، بل هناك عقل شعبي لا يعوزه الذكاء ، ولا القدرة على تغطية مراميه بما يكفل له حرية التعبير عما يريده » [1] .

الواقع أن هذا السير التي عرفت رواجا كبيرا كانت تروي قبل هذا العصر ، وقبل أن تأخذ فيه شكلها النهائي ، ويرجع اكتمالها لأسباب كثيرة منها : إقبال الجمهور إقبالا كبيرا عليها ، وتأثره بمعاناته التي وجد لها صدى في هذه السير ، لذا ترجمها على طريقته فحملت في تضاعيفها مواقف الإنسان العربي الرافض للقهر والظلم ، والمدافع عن قضاياه إلى آخر نفس في حياته ؛ وخير مثال نسوقه عن تأثر هذه السير بأوضاع هذا العصر، سيرة الزير سالم.

تعتبر سيرة الزير سالم المهلهل بن ربيعة من السير الشعبية التي دونت في العصر المملوكي ، وهي وإن بدت خُلْوًا من أحداث هذا العصر إلا أنها تحمل في طياتها بطريقة رمزية هموم الشعب وتطلعه لتحقيق أمانيه .

وتظهر الملامح الرمزية لهذا العصر في هذه السيرة ممثلة في عدة مواضيع وقد تمثلت في الفتن والاغتيالات والقلاقل والرغبة في الحكم واستئثار الظالم به ورغبة المظلوم في الثأر من القاتل ، وقد سربلت هذه المواضيع السيرة من أول أحداثها إلى نهايتها ، حتى بدت السيرة وكأنها هامة لا تهدأ إلا حينما يسفك الدم ويراق .

فمن المعروف أن أحداث هذه السيرة بدأت بحادث مأساوي تمثل في تعدي ملك اليمن على ملك الشام وقتله ملكها ظلما ، ونتيجة لهذا التعدي الخطير ثأر الأبناء لمقتل أبيهم، وتمكنوا من استرجاع حاضرة الملك كما كانت وبسط نفوذهم عليها ، لكن سرعان ما ظهر باغ آخر قام بقتل الملك الجديد المتوج على رأس المملكة ، وترجع السيرة أسباب قتله إلى امرأة ، لكن السبب الحقيقي كان قد تمثل في رغبة القاتل في اعتلاء سلطة الحكم .

لقد أكدت الاغتيالات المتوالية في السيرة على عدم تقبل أولئك الأعراب حاكما عليهم إلا إذا كان منهم، تماما كما فعل الأعراب أيام دولة المماليك « أين كانت تراودهم في أوائل عصر المماليك إقامة سلطنة عربية يكون الحكم فيها لهم » [2] ، وقد سبقت الإشارة إلى تلك الثورة التي قام بها الأعراب ضد السلطان

---

[1] – طلال حرب : بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك ، ص 68/67.

[2] – سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص 315.

المملوكي "المعز أيبك" ، وكانوا قد أنفوا من حكم المماليك وسيطرتهم عليهم، كما أنفت القبائل القيسية مرة من حكم التبع حسان ملك القبائل اليمنية ، ومن حكم الملك كليب بن وائل من قبيلة بني تغلب أحد بطون القبائل القيسية مرة أخرى ، ولا شك أن السيرة تصور من هذا الجانب حقيقة تعلقت بالأعراب وهي رغبتهم في الانتظام في قبائل تماما كما كان يفعل أسلافهم ، وهم الذين كانوا « لا يتقبلون سلطانا عليهم ، أو هم لا يذعنون إلا لسلطة تحكيمية معنوية يتمتع بها شيخهم المختار الذي يحيط به بعض أشراف القوم ، وكان نظامهم القبلي يعوض عما يشعرون به من شوق بالغ إلى الحرية ويدفعهم إلى القيام بغزوات تكاد تكون مستمرة بين القبائل طلبا للثأر أو طمعا في الغزو والغنائم » [1] .

ولا أدل على ذلك من استمرار الظلم في السيرة بقتل كليب المتوج ملكا على القبائل القيسية (تغلب وبني بكر) بوصفه حامي ديارهم ودارئ العار عنهم ، ولم يكن دافع قتله ثأرا أو تمردا ، وإنما كان تعبير عن رغبة أبناء عمه البكريين في الحكم ، فجساس قاتله لم يكن ليتأثر بكلمات امرأة امتهنت الشعر والعرافة لتحقيق أغراضها ، وإنما كان مدفوعا برغبة جامحة لاعتلاء السلطة ، فقد قال لسعاد الشاعرة مرة، وهي التي أوغرت صدره : « أنا لا بد لي أن أطالبه أن يقاسمني على أملاك المملكة » [2] .

كانت الرغبة في السلطة ، إذن ، هي بؤرة التوتر في السيرة ومركز دائرتها : وهي التي كانت رمز دولة المماليك « لأن معظم القلاقل والفتن التي شهدها عصر المماليك في مصر والشام إنما كان مصدره رغبة الطموحين من الأمراء في الوصول إلى قمة الهرم المماليكي الكبير واحتلال دست السلطة » [3] .

وظلت السيرة تعيش في عالم دموي بؤرته الظلم وشعاره السلطة إلى أن ظهر بطلها المهلهل بن ربيعة حاملا سيفه ومطالبا بدم أخيه ، وقد تعمد الرواة إرجاع إظهاره ثائرا رغبة منهم في الابتعاد عن المعنى السلبي والضيق لمبدأ الأخذ بالثأر من ظالم مستبد كما فعلت البسوس التي راحت تثير الفتن وتتحين الفرص لأخذ ثأر أخيها "التبع حسان" ، وهو ليس الجرو كذلك الذي طالبه خاله جساس برأس عدوه .. فالمهلهل في جميع الأحوال هو منقذ رابطة الدم التي تجمع وتوحد قبيلة بني تغلب ، وبمعنى آخر هو الباحث عن العدل في أسمى مراتبه ولا معنى لثأره بدون ربطه بهذه القيمة .

لقد غاب العدل عن دولة المماليك وعمّ الظلم لذا انتخبت شخصية المهلهل بوصفها شخصية تاريخية نموذجية ، لذا يمكننا عدّ سيرته الشعبية من هذا الجانب نوعا من العلاقة الحميمية بين ماضي الإنسان العربي

---

[1] – كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية (منذ ظهور الإسلام حتى بداية الأمبراطورية العثمانية ، ترجمة بدر الدين القاسم ، ص 11.

[2] – سيرة الزير سالم : ص 82.

[3] – سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص 325/324.

وحاضره ، ذلك الإنسان الذي كان ينظر إلى الماضي وعينه مشدودة إلى الوراء ، إلى زمن نقاء العروبة ، فالعودة في نظره تعيد له الشعور بالأمل والراحة المفقودتين ، وتعيد له الثقة في نفسه وانتمائه ولغته ، لذا لم يكن يجدر بهذا الإنسان المتألم والبسيط في تفكيره غير التغني بأمجاد أجداده ، ومفاخرهم ، وبطولاتهم حتى تكون قادرة على الوعي بالماضي الذي أصبح المتنفس الوحيد أمامها ، كما تكون داعيا لإحياء أبطال ذلك الماضي والذين سيصبحون بمثابة الأنبياء والمخلصين من ربقة الحاضر ، وعلى هذه الأسس تبلورت سيرة المهلهل الشعبية أنموذجا عن الفارس المغوار والبطل المدافع عن حق أخيه ومثالا للعصبية العمياء والعدل اللامعقول الذي لا يفسر إلا بالرغبة الشديدة في البقاء والدفاع عن النفس ، وتمثل السيرة من هذه الجوانب امتدادا للواقع العربي في العصر المملوكي – عصر ازدهار السير الشعبية – في مصر وبلاد الشام على وجه الخصوص لأنها عبرت بصدق عن رد فعل المجتمع المفجوع في أحلامه والتعيس في واقعه .

2 - الرؤية الدينية وتهميش السير الشعبية :

لقد أنكر أصحاب النزعة اللغوية على الأدب الشعبي قدرته على حمل دلالات ومعان معينة ، وهذا للغته العامية ولهشاشة أسلوبه وعدم استطاعته تحقيق الأهداف والغايات لقصوره وعجزه عن أداء وتبليغ رسالة الأدب ، لذلك اعتبروه خطرا ينبغي القضاء عليه ، ولا شك أن في هذه النظرة ما يحط من قيمة الأدب الشعبي الفنية والأدبية والجمالية ، بل وما أدى إلى وجود ثغرة حقيقية في الأدب العربي مبعثها ذلك التعالي الذي مارسه أبناء الأمة على أدبهم الشعبي تارة والانبهار بحضارة الغرب ومحاولة نقلها إلى واقع مغاير للواقع الذي انتجت في ظله تارة أخرى ، « ولقد طال الزمن ونحن نمارس دراستنا على هذا الصعيد دون أن ننتبه إلى أن أساس الدراسة في حد ذاته خاطئ كل الخطأ ، وأننا ينبغي أن نعرف أدبنا طفلا لنفهمه شابا ولنحترمه كهلا ، ثم لنستطيع أن نمد أيدينا ببساطة لنقول هذا فكر عربي ، وهذا ثقافة عربية ، وهذا إنتاج عربي كجوهر ملموس حقيقي وفلسفات نابعة من أصل واحد وتعبير واحد ، وإن تعددت مظاهره فجذوره الأولى واحدة » [1] .

يصبح الأدب الشعبي ، بهذا المفهوم ، أدبا هادف يسعى إلى تقديم صورة صادقة عن حياة الإنسان ، ومن هنا تصبح أشكاله المتنوعة تؤدي وظائف كثيرة لها أهميتها في حياة أصحابها ، وقد تكون هذه الوظائف « ترسيخ معتقد أو قيمة أخلاقية أو تعليم من يتلقى بعض هذه المعارف الشعبية أو هي تأكيد قيمة اجتماعية أو هي المعاونة على ضبط حركة الجسم أو هي الترويح في إطار الحياة الاجتماعية » [2] .

---

[1] – فاروق خورشيد ، محمود ذهني ، فن كتابة السيرة الشعبية، منشورات إقرأ، بيروت، لبنان ، ط 2 ، 1400 هـ / 1980 م ، ص 16 – 17 .

[2] – رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، ص 23 .

وبالرغم من هذه القيمة الإيجابية وهذه الأهمية المنبثقة من الوظائف التي يؤديها فقد نظر إليه نظرة ازدراء وصلت إلى درجة إهماله ، بل لقد اعتبر خطرا يجب الخلاص منه ، « وهذا الأمر يجافي الحقيقة ، فالأدب الشعبي ذو قيمة إيجابية » [1] .

ومن أشكال الأدب الشعبي التي ظلت مغيبة وبعيدة عن التناول حتى بعد إلقاء بعض الدارسين الضوء على أشكاله التعبيرية الأخرى ، نجد شكل السيرة الشعبية التي « يسكت التاريخ الغربي الرسمي عن وظيفتها وتاريخ تطورها ووسطها الاجتماعي » [2] .

تعتبر السيرة الشعبية إحدى أبواب فن الخبر الذي يتصاهر فيه التاريخ والخيال ، ويحفل هذا الشكل بأحداث متتالية لتاريخ الشعب العربي من الجاهلية إلى العصر المملوكي، موجها خصيصا للطبقات الشعبية التي عانت من الظلم والتسلط .

ومن أبرز أعمال هذا الشكل التعبيري الشعبي التي لا تزال راسخة في الذاكرة الشعبية العربية : سيرة الزير سالم وسيرة عنترة بن شداد ، وسيرة الملك سيف بن ذي يزن ، وسيرة الأميرة ذات الهمة ، وسيرة الظاهر بيبرس ... إلخ .

وتتميز هذه الأعمال بالطول وتداخل الأحداث وتقاطع الأزمنة واللغة التي تتراوح ما بين الفصيحة أحيانا والركيكة أحيانا أخرى ، وقد جعلت هذه المميزات لهذه الأعمال السيرية قواعد وأصول تتميز بها .

وكانت هذه الأعمال السيرية تمثل جزءا هاما من القصص العربي إلى جانب ألوان قصصية أخرى عرفها العرب : كقصص الأنبياء، وقصص الأمم والملوك، وتلك التي صوروا فيها حروبهم وأيامهم ... وغيرها كثير من القصص التي عرفها العرب منذ العصر الجاهلي واستمرت إلى العصور التي تلت ، وتحفل كتب الأدب والتاريخ بذكر الكثير عن هذه القصص .

وبالرغم من غنى مادة هذا الشكل التعبيري الشعبي وثرائه بالرموز والدلالات والإيحاءات ، فقد نظر إليه الأدباء العرب المولعين بالأدب الرسمي نظرة سلبية ، وكانت علتهم في ذلك أن للقصص قواعد وأصول، « لا يمكن أن نجدها في هذه الأعمال التي يدخلونها في باب الأساطير والحواديت غير فنية ، ويخرجونها بهذا الحكم من دنيا الأدب » [3] .

---

[1] – طلال حرب ، أولية النص ، ص 223 .

[2] – عبد الحميد بورايو ، البطل الملحمي والبطل الضحية (دراسة حول المرويات الشفوية : (الأداء ، الشكل ، الدلالة) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، (د.ط) ، 1998 ، ص 45 .

[3] – فاروق خورشيد ، أضواء على السير الشعبية ، منشورات إقرأ ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ص 13.

والواقع أن موقف الباحثين من هذا الشكل الشعبي يرجع إلى التقليد الأدبي الذي ساروا عليه واقتداؤهم بالسلف الذين يرون أن لا أدب إلا أدب الفصحى، مما جعلهم يتمسكون بمواقفهم ويسلكون مسلكهم في تعاملهم مع هذه الأعمال السيرية، التي لا تستجيب في رأيهم للحقائق ومعطيات الواقع وحقائقه ، لأن فيها من الأساطير والخرافات والأباطيل ما يجعلهم حريصين كل الحرص في طبيعة تعاملهم معها، لهذه الأسباب همشت نصوص السيرة الشعبية وفق الرؤية الدينية التي مسحت جل مواقف القدماء (الفقهاء) من هذه الأعمال ، وقد انعكست هذه الرؤية على الدارسين المحدثين لذا لم يدخلوا هذه الأعمال في الإبداع القصصي.

لقد رأى القدامى – الفقهاء – أن هذه الأعمال السيرية – التي تشكل كما قلنا جزءا يسيرا من القصص العربي – نتاج للخيال الشعبي الذي تكثر فيه الخوارق والأعاجيب والخرافات لذا رفضوها انطلاقا من مقولة الصدق والكذب التي جعلت « موقف هؤلاء العلماء موقفا طبيعيا ومفهوما ، فعقلية العالم لا تعرف غير المسلمات من الحقائق غير عقلية الفنان المبدع التي تفتح نفسه المرهفة أبوابا ونوافذ تتجاوز الحقيقة التاريخية والمسلمة إلى ظلال وأعماق أبعد منها بكثير ... » [1] .

لقد كانت السير الشعبية من بين ألوان قصصية أخرى في مجالس السمر يتداولها عن طريق الرواية الشفوية رواة محترفون ، سيطروا بأحاديثهم على قلوب العامة وسلبوا لبهم ، وشغلوهم عن مجالس الذكر التي تحولت إلى محراب للقص .

وتجدر الإشارة هنا إلى ذكر أنواع القصاص حتى يتضح لنا موقف علماء الدين من رواية القصص الشعبي ، « فهناك القصاصون الكبار من أمثال عبيد بن شريه ، ووهب بن منبه ممن كان يأخذ عنهم غيرهم، وممن ذكروا تاريخهم وقصصهم منذ بدء الخليقة ، وتتبعوا أخبار الملوك وتاريخ العرب وأساطيرهم (...) وهناك أيضا القصاصون غير الرسميين وما أحسبهم إلا مؤلفين للكثير من الحكايات ، يتطوعون تطوعا بتأليفها من خيالهم دون أصول من علم قديم ليتمكنوا من نفوس العامة المجتمعة حولهم ، وربما كان هذا سر النهي عن الاتصال بهم والتنفير من عملهم كما فعل الغزالي في كتابه الأحياء ، فقد عدّ عملهم من المنكرات (...) .

أما النوع الثالث فهم القصاصون الرسميون من أمثال الحسن البصري » [2] .

وإضافة إلى هذه الأنواع الثلاث من القصاص ، يضيف محمد عبده نوعا رابعا من رواة القصص ، وهم من غير العرب ليسوا الإسلام على ظواهر (قلوبهم) أحوالهم وانتحلوا اسم الإسلام ليدخلوا الضغينة فيه فحملوا إليه روايات مللهم ونسبوها إلى غير أهلها وتمادوا في اسنادها إلى الرسول الكريم ، بما جعلها تنأى عن معاني الإسلام

---

[1] – المرجع نفسه ، ص 16 .

[2] – فاروق خورشيد ، في الرواية العربية (عصر التجميع) ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1979 ، ص 86 – 87 .

الحقة ، وفي ذلك افتراء وتعمد واضح ، « فمن هؤلاء من كان يبالغ في الرياء ، حتى يظن الناس أنه من الأتقياء ، فإذا أحس من قوم ثقة بقوله أخذ يروي لهم أحاديث نبوية ، إلا أن ثمة أئمة الدين عرفوا ذلك فنبّهوا على عدم صحتها ، ونهوا عن النظر فيها ، ومنهم من تعمد وضع الأحاديث (...) الدالة على انقضاء عمر الإسلام (والعياذ بالله) ، أو المطعمة في عفو الله مع الانحراف عن شرعه أو الحاملة على التسليم للقدر بترك العمل فيما يصلح الدين والدنيا كل ذلك يضعه الواضعون لإفساد المسلمين وتحويلهم عن أصول دينهم ليختل نظمهم ويضعف حولهم » [1] .

هاجم علماء الدين النوع الثاني من الرواة ، وذلك لتخليهم عن وظيفة القص الحقيقية التي حددها القرآن الكريم ؛ الذي لجأ إلى القصص لمقاومة ما كان يملأ عقول الناس من عقائد ومبادئ فاسدة ولعله في لجوئه هذا ما يفسر قوة تأثير القصص على عقول الناس ، ولم يكن القصد من توظيف القصص التاريخ وإنما استخراج العبرة، ومن هنا كان لا بد على القاص أن يتقصى أخباره بالتتبع الدقيق « وإلا عدّ مخلطا وخارجا على الفضاء الدلالي للقص الذي أرسى دعائمه القرآن » [2] .

وقد تمسك الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الوظيفة وكان موقفه بعد ذلك الفيصل في توجيه رأي الصحابة والفقهاء حول رواية القصص ، وأصبح المطلوب من القصص ، هو الذي يوظف لخدمة أغراض الدين ، « وقد تواترت الأخبار عن الرسول الكريم –صلعم– أنه استمع إلى قصة الجساسة والدجال رواها له تميم الداري (40 هـ / 600م) ، ويعد تميم هذا أول قاص في الإسلام ... » [3] ، وهذا ما يعني أن هذا النوع من رواة القصص لم يكن ليمنع من رواية القصص .

أما عن القصص التي كان القصد منها إلهاء قلوب العامة عن الذكر ، فهي الممنوعة وغير المرغوب فيها ، ولخطورة هذا النوع من القصص كان موقف الصحابة تباعا لموقف الرسول الكريم ، فقد أدركوا خطورته وحاربوه ، « فلم يكن عمر بن الخطاب على سبيل المثال يأذن لرجل أن يجلس إلى الناس في مسجد الرسول ، يحدثهم الأحاديث ، دون أن يكون على ثقة تامة بثقافته الدينية، كما نجد أن عليا بن أبي طالب أيضا كان يطرد القصاص من مسجد البصرة ولا يأذن إلا لقاص واحد هو الحسن البصري ، العالم الجليل المتفقه في الدين » [4] .

---

[1] – محمد عبده ،كتاب المغازي وأحاديث القصاصين ، مجلة فصول ، المجلد العاشر ، العددان الأول والثاني ، يوليو ، أغسطس ، مصر ،1991 ، ص 211 .

[2] – عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1992 ، ص 50.

[3] – طلال حرب ، أولية النص ، ص 38 – 39 .

[4] – نبيلة إبراهيم ، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق ، دار الحمامي للطباعة ، مكتبة القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص 58.

وبهذا يكون لموقف الرسول ومن بعده الصحابة أثره الكبير في النظر إلى هذه القصص ونوعيتها، فقد فرض موقفه « حضورا قويا في توجيه رأي علماء الأصول ضد القصص » [1] ، فقد أورد الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" في باب ما يدل من العلوم ، حديثا عن القصص الذي يقول أنه كان مهمة دينية محضة ، ويندرج تحت ما أسماه بلفظ التذكير ، الذي شابه تحريف كبير وتبديل بأغراض فاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الأول . فبعدما كانت هذه الأغراض من العلوم المحمودة يضطلع بها أرباب المناصب في الدين نقلت إلى معان مذمومة، « فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم وذهلوا عن طريق الذكر المحمود، واشتغلوا بالقصص التي تتطرق إليه الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن، وتزيد عليها، فإن من القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر وإن كان صدقا (...) ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار ، فمن هذا نهي عنه ، ولذلك قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما أحوج الناس إلى قاص صادق » [2] .

وللسبب نفسه رفض أبو حيان التوحيدي الخوض في غمار هذا القصص عندما سأله الوزير سعدان – الذي تبين قدرته على القص – قائلا : « وأظنك لو تصديت للقصص والكلام على الجميع (يريد بالجميع العامة) لكان لك حظ وافر من المستمعين العاملين والخاضعين والمحافظين ، فكان من الجواب : أن التصدي للعامة خلوقة (يريد بالخلوقة هنا معنى التبذل والامتهان) وطلب الرفعة بينهم ضعة ، ,التشبه بهم نقيصة ، وما تعرض لهم أحد إلا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولوثنه ورياءه أكثر مما يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم ، وليس يقف على القاص إلا أحد ثلاثة، إما رجل أبله ، فهو لا يدري ما يخرج من أم دماغه، وإما رجل عاقل فهو يزدريه (يزدان به) لتعرضه لجهل الجهال ، وإما له نسبة إلى الخاصة من وجه وإلى العامة من وجه ، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجالب للهجر والاعتراف الجالب للوصل ، فالقاص حينئذ ينظر إلى تفريغ الزمان لمداراة هذه الطوائف ، وحينئذ ينسلخ من مهماته النفسية ولذاته العقلية، وينقطع عن الازدياد من الحكمة بمجالسة أهل الحكمة إما مقتبسا منهم ، وإما قابسا لهم، وعلى ذلك فما رأيت من انتصب للناس قد ملك درهما ولا دينارا ولا ثوبا ، ومناصبة شديدة لمماثليه وعدائه » [3] .

إن رفض أبو حيان التوحيدي الخوض في غمار القص هو دليل آخر على استخفاف علماء الدين بالقصص وبمتذوقيه، فما الذي يمكن لأبي حيان أن يجنيه من هؤلاء القصاصين غير الضعة والرياء والجهل والنقيصة ، لذا فهو يفضل مجالسة أهل الحكمة على مجالسة القصاصين الذين أورد أحمد أمين في كتابه : ضحى الإسلام ،

---

[1] – عبد الله إبراهيم ، السردية العربية ، ص 58.

[2] –أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص 36 .

[3] – أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ج 2 ، ضبطه وصححه أحمد أمين وأحمد الزين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص 225.

حادثة بشأن استخفاف الفقهاء بهم ، فقد روى « أن الشعبي (ت 103 هـ - 701م) في أيام عبد الملك بن مروان (ت 86 هـ - 705م) نزل بدمر ، فسمع شيخا عظيم اللحية يقول : إن الله خلق صورين في كل صور نفختان : نفخة الصدق ونفخة القيامة، قال الشعبي : فرددت عليه وقلت : إن الله لم يخلق إلا صورا واحدة ، وإنما هي نفختان : فقال لي : يا فاجر إنما يحدثني فلان عن فلان وترد علي ، ثم رفع نعله وضربني ، وتتابع القوم عليّ ضربا ، فما اقلعوا حتى قلت لهم : إن الله خلق ثلاثين صورا » [1] .

ومما يجدر ذكره ، قوة تأثير هذا النوع من القصص وما أحدثه في عصر التدوين (القرن الأول والثاني الهجريين) ، وخاصة تدوين الحديث النبوي الشريف ، إذ لاحظ جامعوه خروج الكثير من الأحاديث النبوية عن مقاصدها الحقيقية ، ووضع البعض منها ، وهذا بفعل الرواة الذي أطلق عليهم العلماء أسماء من قبيل الرعاع والغوغاء، استخفافا بهم وقد أفضى هذا الوضع « إلى ظهور ثنائية الخاصة / العامة ، إذ نصبت الأولى نفسها لقيادة الثانية والإشراف عليها ، وتبع ذلك أن ظهرت قصص العامة وقصص الخاصة » [2] .

فأما قصص العامة ، فيتميز بأنه « لا يحتمل الصدق الذي اشترطه الإسلام ... » [3] ، وعكسه قصص الخاصة، وقد أفرزت هذه الثنائية كما يرى (كريا) الدارس عبد الله إبراهيم مقولة الصدق والكذب التي تحدد بموجبها مكان السير الشعبية في الثقافة العربية على اعتبار انتمائها إلى قصص العامة .

وقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ) في " منهاج السنة النبوية " عن كذب رواة السير الشعبية ، وذلك في سياق حديثه عما نقله رواة السير والمغازي بشأن دفاع أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لما أحاط به المشركون . فقد قال عن الرافضية ، التي أوردت الخبر : « كأنهم قد طالعوا السير والمغازي التي وضعها الكذابون والطرقية ، مثل كتاب " تنقلات الأنوار " للبكري الكذاب وأمثاله ، مما هو من جنس ما يذكر في سيرة البطال ودلهمة والعيار وأحمد الدنف والزيبق المصري والحكايات التي يحكونها عن هارون ووزيره مع العامة والسيرة الطويلة التي وضعت لعنترة بن شداد ، وقد وضع الكذابون في مغازي الرسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو من هذا الجنس وهذا يصدقه الجهال ومن لم يكن عارفا بما ذكره العلماء من الأخبار الصحيحة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما أهل العلم فيعلمون أن هذا كذب » [4] .

نلاحظ من هذا القول مهاجمة ابن تيمية لرواة السير الشعبية ، لخروج كلامهم عن معيار الصدق ، وهو صفة من صفات الكلام المذموم الذي لا يستند أصحابه على الدقة في نقل الأخبال الصحيحة على النحو الذي

---

[1] - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج 2 ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 10 ، القاهرة ، مصر ، ص 127.

[2] - عبد الله إبراهيم ، السردية العربية ، ص 59 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 59 .

[4] - ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ، مج 2 ، ج 4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص 168 .

يعرفه أهل العلم . وعلى هذا الأساس ، فإن مروجي السير الشعبية ونقلتها كذابون – على رأي ابن تيمية – لأن ما يروونه من أخبار لا تطابق الواقع ولا تقترب من الحقيقة .

وورد عن ابن كثير (ت 774 هـ) في هذا السياق ما يوافق رأي شيخه ابن تيمية ، إذ يَعدّ ما نقل من كلام مروجي السير الشعبية بهتانا وانحرافا عن جادة الصواب والعلم ، لأنه يدخل في باب ما ذم من كلام وما لم يروّج منه، وذلك حسب معايير تقتضيها اللغة وآدابها.

ويعد هذا الرأي من الآراء المتشددة فيما يخص انتشار السير الشعبية بين أوساط العامة إذ قال : « وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلهمة [1] والبطال والأمير عبد الوهاب والقاضي عقبة [2] فكذب وافتراء، ووضع بارد وجهل وتخبط فاحش لا يروج ذلك إلا على غبي أو جاهل ردي كما يروج عليهم سيرة عنترة العبسي المكذوبة ، وكذلك سيرة البكري ، أشد إثما وأعظم جرما من غيرها ، لأن واضعها يدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم "من كذب عليّ متعمدا فيلتبوأ مقعده من النار" » [3] .

فابن كثير يهاجم هذا الشكل التعبيري الشعبي لخروجه عن معيار الصدق الذي أوجب على اعتباره كذبا وافتراء وتمحلا زائفا، ولأنه على إخلاله بقوانين اللغة .

ولقد جاء رأي ابن كثير على هذا النسق ، لأن يمثل في حقيقته موقف « أصحاب اللغة والعلوم الدينية ، من هذا اللون من ألوان الإنتاج الأدبي الذي لم يعترفوا به ولم يقدروه ، لأنه كما هو واضح انتشر بين عامة الناس انتشارا سيطر على وجدانهم ومس قلوبهم وامتزجت فيه المعلومات التاريخية والعلمية بمعطيات الخيال والعاطفة » [4] .

ولعل في المقولة التي يعزوها السيوطي للإمام أحمد بن حنبل ما يبرز أكثر موقف الفقهاء من رواة القصص بشكل عام، ورواة السير الشعبية بشكل خاص ومفاد هذه المقولة « أن ثلاثة لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي » [5] .

---

[1] – دلهمة : المقصود بهذا الاسم الأميرة ذات الهمة بطلة السيرة التي تحمل اسمها.

[2] – البطال والأمير عبد الوهاب والقاضي عقبة : يمثل الأول رأس الحبكة ، والثاني ابن الأميرة ذات الهمة وأحد الأبطال ، والثالث يرمز للشر في نفس السيرة .

[3] – ابن كثير ، تفسير القرآن الكريم ، نقله فاروق خورشيد ، أضواء على السير الشعبية ، ص 15.

[4] – فاروق خورشيد ، أضواء على السير الشعبية ، ص 16.

[5] – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، تقديم وتعليق مصطفى ديب البغا ، ج2 ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، عين مليلة ، الجزائر ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص 1202.

فما يخص التفسير ، فلقد استمد – كما يرى فاروق خورشيد في كتابه في الرواية العربية – معظم مادته من كتب السيرة وما تحكيه من قص ص في الرواية العربية معظم مادته من كتب السيرة وما تحكيه من قصص وحكايات ، ولما وجد المفسرون أنفسهم أمام الكثير من الحوادث التاريخية التي لم يعرفوا لها أصولا ، لم يكن لهم من سبيل غير الاستعانة برواة القصص ، « ولم يقدم هؤلاء المعلومة التاريخية الخالصة ، فقد كان هذا مستحيلا ، إذ أن حافظتهم انطوت على المتبقيات التي اختلطت فيها حقائق التاريخ بما خلفه خيال الحفظة والقصاصين على مدى التاريخ ، كما اختلط بكل هذا متبقيات أسطورية عريقة في القدم ، ودخلت هذه كلها في كتب التفسير » [1].

وفي سبب مزج التاريخي بالخيالي يتحدث كارل بروكلمان عن سبب هذه الخصيصة ويرجعها إلى احتفاظ الرواة العرب بذكريات الماضي وأحداثه شأن احتفاظ بقية الأمم بذكرياتها وأحداثها ، زيادة على اعتزازهم وفخرهم بأسلافهم وأيامهم التي خالطتها الكثير من المترسبات الأسطورية ، وهذا ما جعل خيال الرواة والقصاصين لا « يتقيد بقوانين التاريخ الصحيح ، بل كان يتحدث عن مآثر الأسلاف وآثارهم بمثل الحرية والاختيار الذي يتناول به العامة أساطيرهم ، فلم يكن يتقيد إلا بقوانين الفن الشعبي ، بغض النظر عن التزام الدقة والأمانة التاريخيتين » [2].

وأما عن ذكر الملاحم ووضعها موضع التفسير ، فلأنها موضوعة ونتاج لبقايا أسطورية مطعمة بالخيال ومغرقة في الوثنية ، وأما المغازي « فلم يكن القصد من تدوينها العلم والتاريخ بقدر ما كان القصد من تدوينها الفن والإمتاع ، وتحقيق الصورة الكاملة للبطل العربي كما تصوره كتاب هذه المغازي » [3] .

لهذه الأسباب ، تحرج أصحاب العلوم الدينية من هذه المرويات القصصية ، وكان موقفهم منها، موقف المتشدد والباحث عن الحقيقة وسط عالم متخيل لا تهمه الحقائق بقدر ما تهمه الوقائع .

وفي الموضوع نفسه نجد رأي الونشريسي فيما يخص موقع سيرنا الشعبية العربية من الثقافة العالمة ، فيذكر في كتابه " المعيار المعرب " فتوى ابن قداح بشأن هذه النصوص التي تداولتها العامة وروجتها بينها ، إذ يقول : « وسئل بعضهم عن كتب السخفاء والتواريخ المعلوم كذبها كتاريخ عنترة ودلهمة (ذات الهمة) (...) ونحو ذلك ، هل يجوز بيعها أم لا ؟ فأجاب : لا يجوز بيعها ولا النظر فيها (...) وأخبر الشيخ أبو الحسن البطريني أنه حضر

---

[1] – فاروق خورشيد ، السير الشعبية العربية ، دار المعارف ، القاهرة ، 1–كتابك–61 ، ص 15.

[2] – كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ، دار المعارف المصرية مصر ، (د.ط) ، 1962 ، ص 07.

[3] – فاروق خورشيد ، في الرواية العربية ، ص 191.

فتوى ابن قداح فسئل عمن يسمع حديث عنترة هل تجوز إمامته ؟ فقال : لا تجوز إمامته ولا شهادته ، وكذلك كتب الأحكام للمنجمين ، وكتب العزائم بما لا يعرف من الكلام » [1] .

إن هذا النوع من الكتب الذي كان سائدا عن طريق الرواية الشفوية على أيامه ، فهو نوع محضور على المسلم في رأي الفقهاء، إذ يحرم سماعه وحضور مجالس روايته حسب رأيهم لما يتصف به من ضعة وانحطاط ، وصدور الفتوى الفقهية فيه معناه التنويه بخطورته وما يشكله من فساد على عقول الناس .

ومما لا شك فيه أن رواج هذا النوع القصصي في تلك الفترة هو الذي جعل ابن قداح – المفتي المذكور في قول الونشريسي – يقيم فيه فتوى فقهية حيث « يسأل المفتي عن بيع هذه الكتب وشرائها وعن سماعها، فيقطع بعدم جواز بيعها والنظر فيها، بل إن من يسمعها لا تقبل شهادته ولا الصلاة وراءه ، لأنه يستحل الكذب وهو بذلك كاذب ، وتغدو كتب السير الشعبية في هذا النطاق شبيهة بكتب المنجمين وكتب العزائم والسحر ، لأنها جميعا تقوم على الكذب ومجانبة الواقع » [2] .

إذن لقد غدت كتب السير الشعبية من الأمور المحرمة التي لا يجوز للمسلم سماعها ولا قراءتها ، ومن هذا الموقف المتخذ من هذه الكتب القصصية غابت الوشائج وانقطعت الصلات بين ما يسمى بالعامة والخاصة ، وتشكل لكل واحد منطقه الخاص الذي يبرر له العمل الذي يقوم به ، واتسعت من جراء هذا الموقف الهوة بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة ، واستمرت الثانية ي سخريتها من الأولى مع عدم الاعتراف بإنتاجها ، لأن الأدب الذي تروجه لا يرقى برأي علماء الدين إلى المحمود من الكلام ، وسامعه لا يحظى بالاحترام لعدم وعيه بما تحمله هذه الكتب عما يشغله عن أمور دينه ، ولما يرويه أولئك القصاصون من أمور تلهي المرء عن دينه لعدم تحري الصدق فيما يخص روايتها .

هذه صورة عن موقف بعض الفقهاء وعلماء الدين من فن القصص بعامة ومن أدب السير بصفة خاصة ، وهو موقف أثر فيمن أتى بعدهم (السلفيين) ... لكن وبالرغم من الرفض الذي لقيته ، إلا أنها ظلت تقاوم إلى أن تغيرت بعض الرؤى إليها خاصة إبان النهضة العربية التي كان لها أثرها « في تغيير النظر إلى مفهوم الأدب والفن وحظي الأدب الشعبي بمكانة خاصة ضمن هذه التحولات سواء لدى الدارسين أو المبدعين الذين راحوا بدورهم إلى التراث يستلهمونه ويستثمرون مواده ومحتوياته . ويبدو لنا هذا ليس فقط في الاهتمام بالسيرة الشعبية ونظيراتها من النصوص ، بل في ظهور حركات وتيارات أدبية تواجه التقليد الأدبي ... » [3] .

---

[1] – الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا ، نقله سعيد يقطين : الكلام والخبر ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1997 ، ص 47 .

[2] – سعيد يقطين ، الكلام والخبر ، ص 21 – 22 .

[3] – المرجع السابق ، ص 96 .

ومن هذا التحول وجدت نصوص السيرة الشعبية بوصفها شكلا تعبيريا أدبيا ، مكانتها في الأدب العربي ، وأصبحت تحتل منذ أربعينات هذا القرن موقعا متميزا بين صفوف البحث ، ويوضح ذلك العدد الكبير من الدارسين الذين اتجهوا إليها بالبحث بعد طول عناء ، ولقد نجح هؤلاء الدارسون إلى حد بعيد في الكشف عن حقيقة وجدان الإنسان العربي من خلال البحث المتأني والتمحيص الدقيق لموتيفات (motifs) الأدب الشعبي والتي كانت قد أخفت الدراسات اللغوية والبلاغية من قبل حقيقتها كنظام خاص .

3 – أهمية السيرة الشعبية :

كان ميدان السيرة الشعبية من الميادين الخصبة التي اختارها البعض للبرهنة على أهمية الأدب الشعبي ، وفي هذا المجال « استخدمت السيرة الشعبية للبرهنة على أن التراث العربي متكامل يستوعب مختلف الأجناس الموجودة عند الغربيين من جهة ، وأن الخيال العربي لا يتضاءل عطاؤه أمام ما هو موجود في التراث الغربي » [1] .

وتتمثل أهمية السيرة الشعبية بالإضافة إلى ما تقدم في كونها مرآة عاكسة لعصور الانحطاط ، وبذلك فهي ذخيرة لها قيمتها التاريخية والأدبية والحضارية ، لأنها تحمل مواقف إنسانية لها خصائص ومميزات المجتمع الذي أنتجها ، وبذلك فهي تعبر عنه وتحمل في طياتها صدى أفكاره ، لأنها عاشت عن قرب تصغي لأحلامه وتواسي آلامه وترقب مستقبله ، ناهيك عن أنها كانت تصور الصدق الشعبي بتمثله لمختلف ظروف حياته ، لهذا رد الاعتبار لهذه الأعمال الأدبية كمحاولة لإعطائها أهمية وقيمة من جانب ، ولدحض تلك المزاعم التي نفت عنها الجانب الأدبي ، وكل الدراسات التي أقيمت حول موضوع السيرة الشعبية من أحد جوانبها هي دراسات يرجى من ورائها رد الاعتبار لهذا الإرث الثمين ، وأية محاولة تصد هذه الدراسات هي محاولة القصد منها إبقاء التراث الشعبي رهين تلك النظرة الأحادية والسلبية التي كانت ولا زالت تعيق تطور الحركة الأدبية بشقيها ، « وذلك أن إدخال هذه الأعمال في نطاق الأعمال الأدبية ما يرده على الدعاوي التي تتهم العقلية العربية بالقصور والوقوف عند الجزئيات والعجز عن النظرة الكلية الشاملة ، وذلك أن هذه الأعمال هي التصوير الصادق الحقيقي لبيئة الشعب العربي اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، وهي في ذات الوقت كشف عن حقيقة روحه وانعكاس للقضايا الإنسانية العامة التي تتبناها منذ مشاركته في الحياة الإنسانية » [2] .

[1] – سعيد يقطين ، الكلام والخبر ، ص 122.

[2] – فاروق خورشيد ، أضواء على السير الشعبية ، ص 25.

ولا يسعنا من كل ما تقدم ، إلا القول على أن الباعث الحقيقي لرد الاعتبار لهذه النصوص ، إنما تمثل في البعد القومي لأنها تجسد في حقيقتها من « حيث طبيعتها ووظيفتها أبعادا فكرية وإيديولوجية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمرحلة التي ابتدأ الاهتمام بها ، والالتفات إليها (...) والسيرة الشعبية تجسد مختلف القيم القومية والبطولية ، التي يحتاج إليها العربي في صراعه الآن، هذه القيم وقف عندها مختلف دارسي السيرة الشعبية، واعتبروها النص الأكثر استجابة لواقع حال العربي بما يزخر به من انقسام وتشتت ، وبما يواجه به من تحديات خارجية » [1] .

ويكون للباعث البطولي كما كان للباعث القومي فضل الاحتفال بسيرنا الشعبية العربية ، فيطالعنا من جديد عنترة العبسي وسيف بن ذي يزن وذات الهمة والظاهر بن بيبرس والزير سالم ... ،كأبطال قوميين لبسوا أثواب عصر تدوين سيرهم ، التي رسخت بعمق ماضي العرب التليد ، إذ عدت أغلبها جاهلية الأصل حملت صورا عن حياة الإنسان العربي قبل مجيء الإسلام ، فعادات مثل : الكر والفر والسبي والأخذ بالثأر والنوائح والموثبات ، وضرب الرمل والسحر والكهانة ... كلها عادات عربية موغلة في القدم ، وضعتها سيرنا الشعبية العربية في أبهى الصور وأحلى القيم ، حيث عمل رواتها على التقاطها بتحر شديد من بيئتها الأولى، ثم وضعها الموضع اللائق لها، تبعا لطبيعة ونوع موضوع كل سيرة، وهي وإن اختلفت في هذا الجانب « فالذي لا شك فيه هو أن السيرة كانت تحمل الراحة النفسية والرضى الوجداني لذلك الشعب المغلوب على أمره ، مما دفعه إلى الإقبال عليها بحب وشغف تغلغل في أعماق النفوس وتوارثه الأفراد جيلا بعد جيل حتى عصرنا الحديث » [2] .

ومن تلك السير التي تعد بحق من أروع الملاحم الشعبية العربية سيرة "الزير سالم أبو ليلى المهلهل بن ربيعة" ، الفارس المغوار والبطل الكرار ... الذي ذاع صيته في شبه جزيرة العرب ، وتضرب القصة التاريخية النواة الرئيسية لهذه السيرة الشعبية بجذورها في أعماق التاريخ العربي ، إذ ترجع إلى مرحلة متقدمة من العصر الجاهلي ، ومجالها حرب الأربعين عاما أو « تلك الحرب الآنية المتمثلة في حرب البسوس والحرب الخارجية والتي بانت ملامحها ، وإن لم ترد السيرة بشكل دقيق ، والمتمثلة في الحرب التي مجالها روما وبيزنطة وهي من هذا الجانب تؤرخ لمرحلة حساسة من الاعتداءات والأخطار الطامعة للأمة العربية » [3] .

ومن هنا تأتي أهمية هذه السيرة لا لشهرة بطلها ، ولكن لما تحمله من إحساس جسد وعي الإنسان العربي بخطورة المرحلة التي كان يعيشها وإدراكه صعوبة أوضاعه في تلك الفترة .

---

[1] – المرجع السابق ، ص 93 .

[2] – فاروق خورشيد ومحمود ذهني ، فن كتابة السيرة الشعبية ، ص 79 .

[3] – شوقي عبد الحكيم ، السير والملاحم الشعبية العربية ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1984 ، ص 06 .

كما تعالج السيرة مواضع اجتماعية كثيرة ، إلا أن الأساسي فيها ما مثله بطلها "الزير سالم" من إصرار على الأخذ بالثأر وتقديمه في سبيل ذلك شجاعة وبطولات خارقة ، وهذا ما يجعل رسالة هذه السيرة التي طبعت بمسحة العصر الذي دونت فيه –العصر المملوكي– واضحة ، إذ تحثّ الإنسان العربي في عصور الانحطاط ، لا على الأخذ بالثأر كقيمة سلبية وإنما على الوقوف ضد المظالم والقوى المتسلطة التي نالت منه وقهرت سلطانه في عصور الانحطاط (المماليك + الصليبيين) ، إضافة إلى مواضيع أخرى متنوعة تخدم كلها الموضوع الأساسي الذي حمل لواءه " الزير سالم " ، ذلك الثائر في طلب دم أخيه "كليب" المقتول غدرا في سيرته التي عبرت عن انفعاله في أصدق التعبير وأجمله .